محمد حيدار
دموع النغم
رواية

محمد حيدار

دمـــوع النـــغـــم

روايـــــــة

إلى روح الروائي المصري الكبيـــــــر

الراحل محمد عبد الحليم عبد اللـــــــه

دعاء بالرحمات واعترافا بصدقية الكلمة.

الكاتب

الفصل الاول

مقدمات اللعب بالنار:

العرّاف عجينة كحكيم صيني متقاعد، يدرك بكامل ثقة أن ما يجري حوله مجرد كومة من المتغيرات، قد تحملها قاعدة الحركة نحو محطة ما، غير قابلة للرصد في خلوته هذه على الأقل. خطيرة هي المنعرجات التي تلّف الطريق، ولكن الأكيد أنها عكس الثبات الذي خُيّل لكثيرين أنه أخذ مواقعه، لذلك كان العرّاف عجينة يستبد به ضحكه أمام أي طارئ دون أن يعلق بكلمة أو يعترض.

ما يُبشر به العرّاف يوحي إلى سامعيه، أنه يعني قيام الساعة لولا أن سي محمد أكد لجلاسه أن سمعها لا يُسترق.

على مدار سنوات لا تُحصى استطاع العرّاف "عجينة"، أن يبعث في قلوب مريديه الطمأنينة إلى مستقبلهم، ربما لأنه قلما تنبأ بأمور تبعث على التشاؤم، وجلية هذه الخاصية أن ذوي الطالع السالب لا يفدون عليه عادة كما افتخر دائما.

منذ أعوام موسطاش استحالت تنبؤاته مجرد خوارق مغلقة عن الفهم؛ أسلوبه الخطابي المسجّع في لين تلون بألفاظ مرعبة، مخيفة للغاية، كالفيضان، الحريق، البركان، الحمى، الجراد، الموت، ماذا يريد؟!

واصل العرّاف عجينة ضحكه المتعب وهو يمسح دموعه بمؤخرة عمامته المزركشة اللون، وتساءل بدوره:

" عن أية حرب تسألون وقد امتد الدوي إلى ضفاف الوادي من حولنا؟!"

وأيقن جلاسه أن العرّاف قد غزا حكمته هذيان، فمتغير السن غالبا ما يفسد توهج العبقرية.

قلائل هي اللحظات التي يخلو فيها مجلس العرّاف عجينة من الزوار، والأقل منها تلك التي ينفرد فيها بنفسه يحادثها أحيانا بصوت مسموع، أو يعود بها إلى ماض سحيق سرعان ما تلتحم فيه ذاكرته القوية "بملهمه" الأول، الذي وفد عليه في المنام منذ عشرات السنين ليلقنه بعض أبجديات الحكمة.

انصرف العرّاف عجينة عن تأملاته بعد أن أظله خيال شاب منتصب أمامه في صمت، رشقه بنظرة ارتياب حيرى قبل أن يعتدل في جلسته وقلما فعل.

" إنها بغية كل شاب في سنك!"

عملية التنجيم بالنسبة للعرّاف عجينة مزدوجة الأشكال؛ رملية و مقروءة.

في دخيلته لا يعلق كبير أمل على الثانية عكس الأولى، ففي أحضان الطبيعة يفرخ كل شيء، حتى الخطوط الملتوية تأخذ انحناءاتها في غاية اليسر والإيماء.

أدمن على النظر إلى خطوط رسمها على الرمل منذ حين، تنهد أعرض عن النظر اليها، كان بصره سارحا عبر الأفق البعيد.

أمسك بيد الشاب وقد طرب لأمر ما مظهرا بشاشته أكثر من ذي قبل، قال في فرح طفولي:

" أنظر ألا تراها معي تحلق في الأفق البعيد؛ كاعبا ترنو إليك في حنو"

هدأ روعه إثر ثورته تاركا " جمال" يحدق في الأفق منشدها، لا تستقر عيناه على شيء سوى على سحب راكظة تعارض الصفاء في تحد ظاهر، والعجب يكتسه بشدة، سأله:

" من هي؟!"

امتقع لون العرّاف عجينة، وأخذته رجفة معهودة فيه وأشار بأصبعه مستنكرا:

" لا تتكلم؛ لا تقاطع الفيضان ذر السيل ينهمر"

" ولكن من هي ؟!"

وبشدة انتهره:

" قلت لا تقاطع السيل، أتريد أن تغضب خدام الرمل؟!"

وأضاف:

" لن تجدها خلفك فموقعها الأمام"

" ولكن من هي؟!"

" لا تنتسب إلا لمن يختارها"

ودون أن يكرر السؤال انصرف جمال محمولا على كلمات العرّاف، كان الدوار(1) منذ أيام تقضت يمور بحركية غير عادية متعددة الأغراض، اتصلت فيها لقاءات أكبر قادته وطالت جلساتهم إلى ساعات موغلة في الليل، على عكس عادة منهم.

لاريب أن دوار بوغريبة سيعرف أمرا يفوق طاقته هكذا قال جمال لدى لقائه بيعقوب صباح اليوم قبيل الإشراق.

الحطّابون يسعون أياما متعاقبة في جلب كريم الحطب من أعالي الجبال على ظهور الدواب، وكان على سالم الخبير في خصائص الاحتطاب ومنفرجات الأدغال أن يضحي بإحدى ساقيه ليصبح

طريح الفراش يتقوت من سائل الرمث المضاد للسموم، والفصل قيظ والثعبان الذي نهش ساقه من كبريات زواحف الأدغال.

والحق أن أمر سالم لم يبلغ من الأهمية حدا يعطل المساعي الجارية، ففريق من رجالات الدوار ينهمكون في طحن أكياس البارود وهشمه، يشتغلون ضمن أكداس مكدسة من فحكم الدفلى ودقيق الكبريت، وذائب الرصاص الذي يعاد سبكه وفق قوالب جاهزة، من خليط هذه المواد تملأ الأطباق المصنوعة من سعف الحلفاء وتعرض للتجفيف بواسطة أشعة الشمس.

ولأن بوغريبة سبّاق كعادته إلى تذوّق كل شيء، فقد أخذ يحشو جعبة بندقيته بدقيق البارود محدثا طلقات نارية مروعة بين الحين والأخر، شدت أنظار الجميع لقوتها.

" والله خير من بارود البايلك"

" خبرة أربعين سنة"

" الدفلى حرة"

ومن بعيد وهو بمجلس الشيوخ ردد الشيخ المكي تلقائيا كلمة للشاعر محمد بالخير في هذا المعنى:

" دنّق جهد البارود قاع من صال عليه يصول"

مشاهير الفرسان على اختلاف الفنون التي يأخذون بها دعووا للمشاركة في إحياء وقائع الحفل، إذا كان يوم الثلاثاء من الشهر القادم؛ فلقد أرسل خصيصا في دعوة "علال بن التارقي" وحضور علال بن التارقي حدث يكتسي أكثر من معنى، فهو قد قاطع حفلات الأعراس والولائم ليختص بإحياء مثل هذه المناسبات الرسمية.

" إنه علال خطّاف التراب!"

" يوقف فوق ظهر العود!"

" فرقته بلباس واحد"

ورأى الشيخ مبارك نفسه معنى بزعامة فرقة الخيالة التي ستمثل الدوار المضيف، ورغم انه يعترف بالقصور عن اللحاق بمستوى علال ولد التارقي فان للدوار رجاله إذا جدّ الجد.

واقتضى الأمر ـ فيما اقتضاه ـ دعوة " بوسنة" زرناجي القرية المجاورة على أن يفد معززا بكامل أعضاء فرقته من نوابغ الدفوف، وإلا خلف غيابه انعكاسا جد خطير إذا علمنا أن الساحة ستخلو من رقصات شعبية شيقة.

جو الاحتفال يغمر الأنفاس، وسالم ينفرد بتأوهاته الموجعة إلى جانب الخالة " الواشمة"، التي تتخيل المشهد مغايرا بالمرة، داميا محزنا مفجعا، مشيخة الدوار يتحلقون حول المصلى العام، يتشارون في أمر الحفل.

وجرى التفكير في عدد الخيم التي ينبغي إلحاقها ببعضها لتكوّن خيمة بالغة الضخامة، كفيلة باستيعاب الضيوف جميعهم، على أن تأخذ من مظاهر التزيين ما يجعلها مميزة.

إن المناسبة لجد عظيمة تتجاوز مقتضيات إحيائها ما يمتلكه شبان الدوار من عادي الألبسة، وهم لهذه الغاية يتقاطرون على متاجر القرية لاقتناء ما يليق بمظاهرهم إذا كان يوم الثلاثاء.

أيام قليلة وتسمو خيم الدوار وأكواخه إلى مستوى يفوق استعداداتها؛ ستستقبل القايد (2)، الرجل الذي لا عازل بينه وبين باشاغا المدينة(3)، فرضاه يعني رضا الباشاغا فالمستاتور(4) ، ومن حاز ولاء هذه السلسلة من الأكابر فإنه بالمجد لخليق، كذلك فكر الشيخان بوخلوة ومعلّى.

الكل يجهل موضوع الزيارة، ولا يود أن يتطفل بالسؤال، إنها بالنسبة لرجال الدوار ضيافة فحسب، أما الباقي فرسميات ضيقة النطاق ستقتصر على رؤساء البطون.

وقال بوغريبة ليعقوب وهما يستمران في طحن البارود على الطريقة التقليدية:

" 3 كباش ضيافة و3 غرامة!"

ومع الغروب تراءى للأعين فارس قد اتجه صوب الدوار، ليس هناك من شك لحظة واحدة في أن مقدمه على هذه الصورة، وفي مثل هذا الوقت يتعلق بزيارة القايد، فالدوار أصبح مذ اعتزامه هذا الأمر محط ركبان وافدة من مختلف الآفاق.

" قد يكون الكوراط ؟!"

" ربما أحد أعوانه؟!"

المهم كما قال الشيخ بوخلوة وقد اعتدل واقفا:

" إذا كان صديقا فسيسره صنيعنا"

أبرقت عينا سي محمد وقد حذق ما عناه الشيخ بوخلوة، فالعداء وراثي ملتهب بين الدوار وجاره دوار الشيخ الفُضيل.

الجواد الطائر بلغ ساحة الدوار، كان الكوراط فعلا ولم يتخلف هندامه عن الاحتفاء بالحدث، إنه كما يتضح على عجلة من أمره، فلقاؤه بالشيخ بوخلوة لم يطل كما توقع البعض، إذ امتطى صهوة جواده عائدا من حيث بدا، مخلفا الشيخ وقد حز في نفسه أن تسند مهام تتعلق بدواره إلى كوراط مجاور.

ومع ذلك َاَب الشيخ بوخلوة إلى جمعه تسبقه علامات السرور، وبادر قبل أن يبلغ موقع مجلسه:

" لقد خُصّ دوارنا بما لم يُحظ به دوار قبله على الإطلاق "

" ماذا هناك يا شيخ؟"

" معالي الباشاغا والمستاتور سيصحبان القايد في زيارته هذه

ومعنى هذا أن كل الاستعدادات يجب أن تتضاعف أضعافا"

ورشقه الشيخ المكي بنظرة لاهبة وكأنه برم، وسبقه الشيخ معلى إلى الكلام فقال:

" الحطب والبارود كافيان"

وأشار الشيخ مختار:

"" ألعاب الفروسية والأهازيج مهيأة"

وقال مراد:

" أما الغذاء فظني أن خمسين خروفا ستفوق طاقته"

ما يشد تفكير الشيخ بوخلوة هذه المرة هو أمر الشيخ المكي، هذا الرجل المتعنت ماذا دهاه؟! كلما شارف الدوار مجدا تلقاه عابسا؛ كان كذلك أيام موسطاش ولايزال متجهما قد أرهقته التناهيد المجانية.

" وزوج السيد المستاتور لابد لها من هدية ثمينة"

أكد الشيخ بوخلوة في صدق.

تناول الشيخ المكي علبة تبغه الحديدية الصدئة، وأخذ يلفّ واحدة من سجائر الشعرة الفاخرة، وهو الوحيد من بين شيوخ الدوار الذي كان يتعامل مع التبغ كما يتعامل الأطفال مع قطع الحلوى، وأفجعه أنه ولا أحد يستشف الزيارة من جوانبها الأخرى، فالمُلحّ هو أن يتبارى الجميع في تهيئة أسباب الضيافة كما تقرها أصول الكرم البدوي وكفى.

" قطيع بكامله سيذبح؛ كل خيمة دفعت خروفا بل كبشا! في فرنسا لو زار المتصرف المدني قرية ما ذبحوا له دجاجة!!!"

علق بوغريبة هازئا.

" لكل دوار تقاليده"

ردد الشيخ بوخلوة في زهو، وتمتم بوغريبة:

" المسكين يتخيل فرنسا مجرد دوار يحتفل بمستاتور طاغ!"

إن من قضى بعض عمره خارج هذا المحيط، سرعان ما تفقد ذاكرته شعائر متشابكة هي الحياة في منطقها المحلي، ظنا منه أنها مجرد هوامش لا طائل من الإنصات إلى إيقاعها المتعب، الممل.

فبوغريبة يعيش نوعا من الانفصام غير الواضح الأعراض، يجهل بالمرة أي الطورين يحتل منطقة شعوره؛ المهجر أم الدوار؟!

ما يعتقده أن العهدين لا ترابط بينهما، يتعايشان دائما في انشطار بالغ الفواصل.

إن القضية لماثلة النقيض لدى يعقوب مثلا، فهو يمتعض فقط لمظاهر التكلف في الحياة التي يتبناها ساسة الدوار رغم إقراره بمشروعيتها، كالتزامات يجب أن تُؤدى على أكمل وجه وإلا اهتزت صورة الكمال التي عُرف بها الدوار.

فالخيمة الكبيرة هي تلك التي تعودت على البذل، دون أن يعرف الأخرون مصدر قدرتها على العطاء.

قرر ساسة الدوار أن تنطلق مراسم الحفل قبل موعد الزيارة بيوم كامل، ما الذي يحول دون ذلك وقد نزل بالدوار مبكرا " علال بن التارقي" و " بوسنة" بأفراد فرقتيهما؟!

وارتأت رقية أنه من الحكمة أن تستهل العهد الجديد بزغرودة تعيد إلى الفضاء المتجهم انشراحه، فطلبت من بوغريبة أن يهيئ

بندقيته لتتجاوب مع زغرودتها التي ينتظرها الجميع بصبر يشتد خواؤه، واخترقت أجواء الغروب متعالية تدريجيا في نبرات تكتسح طحالب الصدور، وأبى جمع من فتيات الدوار إلا أن يمددن في إيقاعها بعد أن نفذ الصوت الرخيم، وكان على بوغريبة أن يختتم المشهد الصوتي بطلقتين من بندقيته.

وإذ انطلقت الأهازيج كما أراد لها شيوخ الدوار، فان أنغام الزرنة ـ عكس ألعاب الفروسية ـ لا يحدها ظلام الليل الكاسح، بل على النقيض منها بسكينته ووحشته يمنح الأنغام سر نفاذها إلى القلب فتعود بكل ذي ذكرى إلى ماضيه.

تصدّر حلقة الرقص بوغريبة، يعقوب ومراد فاكتسحت عباءات الطيسور دمن الحلفاء.

وبلغ المشهد قمة فتنته بانضمام الشيخ بوخلوة شخصيا إلى حلقة الرقص وقد زايله وقاره المعهود، غير أن حركاته الفنية وما أضفاه عليها من خفة مفتعلة، ظلت تثبت انتماءها الكلي إلى مدرسة انقرضت، ولاحظ الجميع غياب بنت النمر.

وبنت النمر أرملة جسور استطاعت أن تحافظ على مكانتها المرموقة في الدوار كواحدة من فواتنه، رغم أنها أثنت كل من طلب يدها؛ فهي زوج موسطاش الذي كان من بين ضحايا المعتقل في أواخر الثلاثينيات.

مات كواحد لعب بالنار، قيل إنه كان ينتسب إلى قوم سموا أنفسهم حزبا مناهضا للقايد والمستاتور.

ومع أنها لا تنتسب إلى الدوار فقد أصبحت منذ عهد مبكر جدا كما لو أنها المفوض الكامل لنسائه.

الدوار في مناسباته المفرحة والمترحة على السواء لا يسمح بأي لون من ألوان الاختلاط، فالناس أشراف ولو خبلوا، وأمام هذا

الوضع الوراثي، كان على النساء أن يفجرّن طاقاتهن الفنية ضمن تجمعات داخل الخيم، ولا باس أن يراقبن استعراضات الرجال وهن يتطلعن إلى الساحة بـأعينهن من شقوق ممتدة عبر ستور الخيم وأسجافها.

وحسب الزغاريد المتعالية والأهازيج النسائية المنبعثة من الخيم أن تُحدث شعورا معنويا بالاختلاط لدى الرجال والنساء معا.

ولأن شعورا على هذه الشاكلة من الكبت الواعي يلهب الرغبات يتصاعد احتدامه، فإن تأكيد الذات لا يتحقق في مثل هذه المناسبات إلا بقدر ما تسهم به من جهد عضلي، في ساحات الغناء والرقص والفروسية والزغاريد.

فالقضية قضية إلفات نظر ليس إلا، وبأسلوب لا يرحب بتاتا بالمباشرة.

وهكذا أعربت المنافسة في تعاطي الرشاقة عن نفسها بين باقي أقطاب حلبة الرقص، إذ الكل يمني النفس بنظرة ولو عابرة من لدن حليمة ملكة جمال الدوار على الاطلاق، إلا بوغريبة الذي يعترف باحتقاره لتقنيات الانجذاب كما يقرها الدوار.

اعتزل الشيخ بوخلوة الرقص غير آبه بما قوبل به موقفه من صياح جماعي اضطره إلى الاحتجاج، فمركزه كمكلف بمهمة من لدن الكوراط يقتضي منه التفرغ لأمور أكثر أهمية.

وأسفر الموقف عن ذروة الدهشة فيه حين حاول بوغريبة أن يستدرج سي محمد إلى حلقة الرقص، لكن شيوخا فضلوا الجلوس بعيدا انتهروه في قسوة لاذعة، فالسي محمد مهما كان الأمر يمثل ضمير الدوار، والضمير منزه عن الخوض في سخريات اللهو.

مع الصباح لم يعد الأمر مجرد تمارين قابلة للتعديل، فالدوار يعيش يومه الرسمي بالفعل، وعليه أن يكون في مستوى اللحظة وإلا افتقد نفوذه كدوار له خطره بين دواوير القبيلة.

وتوقع الشيخ بوخلوة أن القايد لحكمة يراها، ربما اصطحب قائد الحامية فالمنطقة عسكرية بحكم موقعها، والقايد أذكى من أن يغفل أمرا كهذا.

لقد ارتأى بوخلوة صوابا؛ فالسيارة التي تتوسط القافلة المتجهة نحو الدوار مع الإشراق، عسكرية ذات طلاء رمادي داكن.

" خمس سيارات دفعة واحدة يا للمفاجأة!"

صاح الشيخ بوخلوة وهو يسارع بمعية جمع من الشيوخ إلى حيث ينتهي الطريق المحفّر غير المعبّد، ليصطفوا إلى جانب الكوراط للاستقبال؛ أخذت السيارات تتوقف واحدة تلو الأخرى وكان أول من غادر أمامية السيارة الأولى القايد وقد أعدّ لليوم عدّته، من نصاعة لباس وخيوط حريرية لفت عمامته في تشابك عجيب، والجسم الممتلئ يعطي الهندام الفاخر أبعاده، في حين اكتفى المتصرف المدني بقميص قصيرة أكمامه وبنطلون يقاسمه ذات اللون، أما الضابط فنزل بكامل بزته الميدانية بما فيها المسدس

بينما فضل سائق السيارة العسكرية أن يصطحب رشاشه الملقى على ظهره في رفق.

وتسابق نسيم البوادي الصباحي على مداعبة جدائل حرم المتصرف المدني، التي برزت من بعيد في مظهر أعاد إلى بوغريبة مشاهد تستقر بأعماقه كلون من محفوظات الصغر.

لقد أبدع علال بن التارقي إلى حد جعل الضيوف يفضلون الوقوف بعيدا من خيمة الضيافة، للاستمتاع بلقطاته الرائعة؛

فجواده يستجمع الأنظار، والشيخ بوخلوة يؤلف حلقة رقص إلى جانب حلقة بوغريبة.

المتصرف المدني يلتفت إلى القايد الساهم ليسأله في عجب:

" أيوجد الرقص الصامت هنا أيضا؟"

وانبرى القايد شارحا كما لو كان ينتظر أن يطلب منه القيام بشيء كهذا:

" هذه رقصة تفضل الصمت الذي تتخلله طلقات البارود، إنها أكثر أنواع الرقص البدوي عراقة"

والمتصرف يشعل سيجارته:

" ولكن يبدو أنها قصر على الشيوخ؟"

" غالبا، وهم لا يرتادون حلبات الرقص إلا في الأيام العظيمة كيومنا هذا"

"شكرا"

الطلقات الجماعية الموحدة يختلط دويها بزغاريد النساء وأنغام بوسنة، وأمام كل هذه الألوان اتسعت مهمة القايد في تفسير ما يشاهده الضيفان.

أما الضابط العسكري فكان همه الأوحد؛ أن يركز على تفاصيل صنع البارود وكيفيات اقتناء البنادق؛ ولكم أذهله أن يعلم أن هذه البنادق البدائية تستخدم لصيد الوحوش الكاسرة، وأن رصاصة منها كافية للقضاء على أسد أو نمر أو انسان.

أنهى بوغريبة الرقصة وانصرف محاولا الاقتراب من جمع الضيوف، إنه على مسبق علم أن مجرد دنوه منهم سيثير غضب الشيوخ، لكنه رجل المغامرة، توقف، أخذ يتفرس في وجوههم كمخبر يستعرض أشخاصا مشتبها في أمرهم.

إنها شديدة الشبه بسوزان لولا فارق في السن واضح، همسات زوجها إليها تتكاثر، خيل إلى بوغريبة أن المتصرف أعرض عن تتبع الحفل ليتفرغ كلية للاهتمام به.

عاد بوغريبة إلى حلقة الرقص دون أن يتمادى في الانقياد وراء شطحات حدسه، وكأنه قرر أن يفوّض الحاضر إزالة الماضي.

من المتوقع جدا أن تنهي جميع الفرق عروضها الصباحية لينتقل الاهتمام بذات الدرجة إلى وجبة الغذاء، سيما وأن الخيمة الضخمة على اتساع مجالها قد ضاقت بشرا.

الضيوف شرعوا في تناول مقدمات المأدبة، والعيون جماعيا مشدودة إلى منطقة الشواء وهي تمطر الأفق بسحب داكنة من دخان الخروب الكثيف.

انبرى مبارك وقدور ومراد يقدمون أطباق الملفوف(5)إلى الضيوف الأكابر وارتأى بوغريبة أن عليه أن يساعدهم فأسرع غير مأذون نحو المتصرف المدني وشقرائه الجالسة في وقار إمبراطورة شرقية، حاملا طبقا من الملفوف قد اختار لفائفه في بالغ عناية، اقترب من السيدة وقال:

" تفضلي سيدتي"

ورشقه المتصرف بنظرة حيرى، مطولة مركزة نارية مستنفذة وهو يهمس إلى زوجه، وقبل أن تعير همسات زوجها اهتماما شدت على سفود الملفوف وهي تقول في كلفة:

" شكرا"

وأعربت عن تساؤلها صراحة هذه المرة، فوجدت زوجها يندفع إلى التصريح:

" الشواء على الحطب لذيذ"

وهو يحدج بوغريبة بنظرات ثابتة التصويب، وقد تولى القايد مهمة الترجمة فابتسم بوغريبة تعليقا على هذا الفضول المكشوف، قالت:

" ما اسمك؟"

" بوغريبة"

وتمتم المتصرف:

" حقا إنه لذوغرائب"

أدرك بوغريبة مغزى مقولة المتصرف التي اختار القايد اهمالها عن قصد أثناء الترجمة، واستطرد المتصرف:

" ولو على هذه الصورة المبسطة وهذا الهندام الموغل في البداوة "

وقال بوغريبة وكأنه يمعن في طمأنة المتصرف:

" مرحبا بكم "

" الكرم هنا أفضل أليس كذلك؟"

وتنهد بوغريبة:

" لكل أرض خصائصها"

وقالت زوجته والاستغراب يعتصر أنفاسها:

" بصراحة لقد راقني منظر الفروسية"

وتدخل بوغريبة مبعدا ترجمة القايد هذه المرة:

" ورقصتنا ألم ترقك سيدتي؟"

وشرقت بضحكتها:

" أه نعم بلى بلى "

معلومات الدوار ولأمر أراده هو، لا تتجاوز كون بوغريبة طرد من فرنسا لسبب علاقة غير شرعية مع امرأة يقال لها سوزان، حادث غريب في حياة المغتربين ربما لهذا سمي بوغريبة.

كان الموقف داخل خيمة الضيافة قد عرف من التعقيد ما يجهله بوغريبة بالمرة؛ فالشيخ بوخلوة لايزال قائما بالقرب من السجاف يعقد حاجبيه الكثين في غرابة واضحة، وقد صرفته فاجعة المشهد عن التزاماته كشيخ دوار مضيف.

وارتأى الشيخ معلى في الأمر ما يدعوه للانصراف دون تحديد وجهة معينة، بينما اكتفى الشيخ مبارك بابتلاع حيرته في صمت قاتل.

الراعي بوغريبة يحادث المستاتور كما لوكانا صديقين؟!!

أحقا يصل دهرنا من الاتضاع حدا كهذا؟! تساءل الشيخ بوخلوة في مرارة وحنق.

لم يفقد المشهد طابعه الجنائزي في نفس شيخ الدوار الذي يبدو أشد حساسية من زملائه كلهم، فهم يرون فيه عرفا مقلوبا وقواعد آلت قداستها إلى التمييع، بينما يستشف فيه هو حلمه المصيري وقد ركبه اهتزاز فجائي عنيف.

منصب القائم بمهمة الكوراط؛ حلم أربعين سنة يتبخر يتدنى، ينهار ليصير بيد راع كل فضائله أنه أحسن التسكع بأزقة باريس ذات مرة! ولكن

يبدو أن الخبيث قد أدرك بوابة الدهليز، فلئن كانت معرفة عابرة بالمتصرف المدني خليقة أن تبلغه غاياته، فما بالك بمعرفة من الخصوبة بحيث يطيل معه الحديث إلى مدة كهذه، بل لم يبق إلا أن يتخذ له بجانبه مكانا للجلوس، هل قدر للمتصرف أن يهتم فقط ببوغريبة؟

وفي غمرة هواجسه الثائرة في تضارب مكشوف كشائعات في أوان حرب نسي الشيخ بوخلوة أن يجيب عن تساؤلات القائمين على الشواء منساقا وراء القول تحت وطأة ما يمخر عباب أفكاره:

" دونكم بوغريبة فاستفتوه"

وكاد أن يطلب إلى بوسنة أن يوقف نقيق زرناه بعد أن فقد الحفل أبعاده، إنه يود للدوار أن ينخرط في بكاء جماعي ترحما على مجده المنهار.

الخبر اللغز تطاير عبر الخيم لا تحده الآكام الصخرية أو كثبان الرمال العديمة الطلح؛ من بين ما أشيع أن زوج بوغريبة

الفرنسية قد لحقت به تنشد الوفاق، وأن جولة أولى من التراضي توشك على الانقضاء.

واحتجت زهرة لرأيها أن زوج بوغريبة، لم تكن سوى ابنة المستاتور، ومعنى هذا أن نفوذ بوغريبة سيعم الدوار وما حوله.

وتساءلت حليمة واجمة في دهشة:

" زوجته الرومية؟! هراء، إنها خليلته فقط "

وقاطعتها الخالة الزانة أم زينب:

" وما الفرق في بلاد النصارى يا غبية؟!"

" سيصير قايدا إذن أو كوراطا على أقل تقدير؟!!"

قالت رقية زوج الشيخ معلى في ذهول.

وضحكت زينب وهي تسر إلى حليمة:

" أراك شاردة! نحو من هذه المرة يا ترى؟"

وقالت حليمة مداعبة:

" اخرسي يا وقحة"

برنامج الإطعام اعتراه اختلال واضح، والأهازيج أخذت تنخفض حدتها، والشيخ بوخلوة يريد من خلال هذا أن يوحي إلى الضيوف الأفاضل أن شيئا ما قد حدث.

الانقطاعات الطارئة على الحفل، دفعت بالقايد إلى مغادرة مجلسه صوب الخارج معتلكا غيظه، وفور أن انفصل عن الخيمة اتضح أنه يعتزم عقد مجلس خاص لساسة الدوار، ينهي إلى علمهم سوء عاقبة الصنيع.

اختتم القايد حديثه الشديد اللهجة بقوله:

" أرى أن يجمع الدوار مجددا أربعين كبشا تُقدم إلى المستاتور بعد انصرافه".

وما كان من الشيخ المكي إلا أن صاح حانقا وكأن كلمة القايد أفقدته توازنه:

" هذا لا يُطاق صدقوني لا يُطاق فعلا!"

احتجاجه لم يفاجئ القايد، إذ إن للشيخ سابقات أشنع أحيط بها المستاتور على جناح السرعة، ما يثير القايد فعلا في الشيخ المكي أنه يسجل اعتراضاته بثقة في النفس أكيدة كسيناتور أمريكي منشق.

واستطرد الشيخ المكي وقد حز في نفسه ما وصل إليه الأمر:

" أيها القايد لعلمك أن كباش الضيافة التي تشوى الآن، لا تزال دينا في ذمة نسبة كبيرة من خيم الدوار"

وانتهره القايد في قسوة:

" نحن هنا لا نتناقش بل نتخذ إجراءات وقائية لصالح الدوار"

وواصل الشيخ المكي وكأن القايد لم يقاطعه وهو يشير بيديه في شديد انفعال:

" ثم ماذا حدث؟ ألأِن بوسنة استرجع أنفاسه هنيهة تحيق بالدوار كل هذه الغرامة؟!"

كان الشيخ بوخلوة مطمئنا إلى هذه الحدة التي تطبع لهجة القايد فهي على أهون حال ليست شيئا مستهجنا، إذ ماذا ينتظر من دوار تنازل بقيادته لواحد مثل بوغريبة؟! ماذا ينتظر منه ؟!!

آب القايد إلى خيمة الضيافة وتحرك في أثره بقية الشيوخ، وتحت ضغط الاهتياج التفت الشيخ بوخلوة نحو الشيخ المكي وهو يهدر دون أن يحدد هوية الشخص الذي يسير إلى جانبه:

" ماذا ينتظر من دوار أسلم زمامه راعيا"

وتثاقلت خطى السيناتور وهو يرمق شيخ الدوار بنظرات ثابتة كلها عجب:

" ماذا تعني؟!"

" لكأنك أعمى؟! ألم يشدك مشهد بوغريبة إلى جانب المستاتور قبل حين يتفحصان معضلات الدوار؟!"

وزفر الشيخ المكي في تذمر:

" وهو كل ما يقلقك؟ ثم أجاد أنت فعلا في قلقك هذا؟"

وأردف الشيخ المكي في زفرة متناهية القوة:

" لو صارت قيادة الدوار بيد بوغريبة لكان قد قال كلمة على الأقل في المصاب الذي ألمّ بنا"

وقد خاله يهزأ به:

" أتراه أهلا لها مني؟ من الشيخ بوخلوة؟"

وقهقه في تعب:

" ومن استفتاني يا شيخ بوخلوة أو استفتى غيري؟ دع هذه الصغائر جانبا بالله عليك دع الناس تنُح مصابها"

ولجا الخيمة الكبرى، كلاهما يستشف المسألة من منظاره الخاص فبقدر ما هي لدى الشيخ المكي مبعث سخرية وتندر، تزداد في نظر الشيخ بوخلوة أهمية، إلى أن احتلت خريطة خلده؛ أينمحي مشهد على جانب من الاستهانة كذاك الذي جمع المتصرف ببوغريبة في صدر خيمة الضيافة؟!

أمام هذا الظرف الذي أضفته الأحداث على زيارة المستاتور، سمح الشيخ معلى لنفسه بإصدار مجموعة من الأوامر إلى قادة الفرق الفنية من فروسية وزرنة ورقص، فاستعادت ساحة الدوار حركيتها وأنغامها، الهجير يستقبل طلقات البارود الجماعية وقد اخترقت عنان السماء.

وقدّم بوغريبة من الرقص ضروبا لم تسعفه الفترة الصباحية على تقديمها، وأبدع الشيخ بوسنة في ألحانه سيما وأنه أجبر تحت تكاثر الطلب واشتداده على عزف لحن " كي طال الحال" أكثر من مرة، وهو لحن فروسي تعوّد جواد علال بن التارقي أن يهز أطرافه بشكل عجيب تمشيا مع تقاطعه الأخّاذ.

وما أن التحقت الخيول بخط الوصول لاهثة ودوت البنادق في صخب، حتى أوقفت هذه الأنشطة بإشارة من القايد، الجموع الغفيرة تغادر الخيمة الكبرى لتشكل حشدا دائريا بخارجها على العراء، يتوسطه القايد والباشاغا والمستاتور وزوجه والضابط، ساد الميدان سكون وتقدم القايد بخطو مسموع مخاطبا الجمع:

" يا رجال الدوار لقد أبى السيد المستاتور تشريفا لدواركم، إلا أن يخاطبكم وسيكون لي شرف إيصال إرشاداته اليكم "

تقدم المتصرف دون أن يكلفه الموقف إسقاط نصف سيجارتــه وهي تذوب بين سبابته ووسطاه:

" أيها السادة أعلن أن موقفكم من زيارتنا، قد كان قميئا بمحو آثار الخطأ الذي ارتكبه دواركم عن غير عمد، في انتخابات الجمعية التأسيسية"

وامتص نفسا من سيجارته واستطرد وهو يطوف بعينيه الزرقوين عبر الوجوه المعفّرة:

" هذا الخطأ الذي ساقكم إليه مشوش قد لقي جزاءه على الفور"

اندفع الشيخ بوخلوة مصفقا قبل أن يدرك كلام المستاتور بواسطة لسان القايد، فتبعه آخرون بالصفوف الخلفية، وواصل المتصرف:

" واعترافا منا بصنيع دواركم سوف نفكر في تعيين كوراط منكم"

وتبعا لإشارة القايد اكتسحت الساحة موجة من التصفيقات الحادة أذابتها طلقات بارود بادرت بها فرقة علال بن التارقي.

منذ أن غادر الضيوف الخيمة؛ أضاع يعقوب عينيه في جدائل الشقراء، وأقر في دخيلته أن القول بواحدية جمال حليمة أصبح بعد الآن قابلا للمراجعة.

الرتل يتوارى والجموع تتفرق، الشيخ بوخلوة يشكو توعكا ألم به ما لبث أن الزمه الفراش، الشيخ معلى يضطر إلى البقاء بجانبه، كلاهما انخرط في سهوم مريب.

" تصور لو لم يقدم الدوار على الأخذ برأي موسطاش، لكانت قضية الكوراط قد وجدت طريقها إلى التسوية مذ سنوات"

" يتضح من كلام المستاتور أنها تطرح نفسها بإصرار"

" ولكن! "

" ولكن ماذا؟"

اعتدل في جلسته رغم الإغماء الذي يلف عينيه بين الحين والحين:

" إنني لأخشى أن تُسند المهمة إلى بوغريبة اللعين؟"

وقال الشيخ معلى:

" أو يخطر مثل هذا على بالك حقا؟!"

" لكأنك لم تلحظ المستاتور وهو يحادثه، أه اللعين يحسن اللغة الفرنسية وأخشى أن تصبح شفيعا له في المنصب"

وقال الشيخ معلى جادا:

" وهداياك ما مآلها؟"

" إني أفكر في عزله من الشغل، لقد أسقط عن نفسه صفة الراعي وصار منافسا"

" إجراء يمكن اللجوء إليه عند الحاجة، كان عليك أن تمنعه حضور الحفل كما فعلت أنا بالرومي".

لم ينفرد الشيخ بوخلوة بالاهتمام الذي أولاه المتصرف المدني لبوغريبة، فالأمر يطرح سؤالا كبيرا لدى سي محمد والناصر والشيخ المكي ورجالات المصلى العام، وإذا كان هناك من لا يحمّله ما يتجاوز حجمه، فإنه قد ألقى على حقيقة بوغريبة من الإبهام ما زادها استعصاء عن الفهم.

إن المشهد خرج عن دائرة المداعبة التي من المحتمل أن تدور بين مستاتور أو قايد وراع، وإذا كان في الكلام الذي دار بينهما بواسطة القايد ما لا يثير أي لون من الاستفهام، فكيف يمكن تفسير خلوة المستاتور ببوغريبة قبل امتطاء السيارة؟!

" ظني أنهم أرسلوا به من وراء البحر عينا على تحركات الدواوير؟"

" إنه عديم الصلة بهم، أسفاره إلى المدينة تقتصر على زيارة الرابلة "(6)

هذا السيلان المنهمر من الخواطر والتساؤلات لاقى في منسوجات القيل النسائي ما يدعم الجوانب المثيرة فيه، ويدفع به إلى أن يعمّ أرجاء الدوار، فيبلغ أسماع الرومي ويعقوب اللذين ما كان منهما- استزادة في استفزاز الشيوخ - إلا أن لقّبا بوغريبة بالكوراط علانية:

" أهلا بالكوراط"

" كيف حال الدوار يا الكوراط؟"

" ألم تشرع بعد في جمع الغرامات وتوقيع الضرائب؟"

" لابد لك من حصان إذن"

" وبرنوس من وبر وعمامة ذات خيوط حريرية وسياط للتأديب "

تصدّر أمر بوغريبة شاشة الأحداث في دواره، الارتياب

يزيل بريق الزيارة، الآمال تتبخر والأحاديث تعلك الاحتمال، والغريب أن بوغريبة لم يواجه الإشاعة بما يدحض مفعولها كان فقط يبتسم تشجيعا لمرددیها، حتى سخريات الرومي ويعقوب يجيب عنها باقتضاب مبالغ فيه:

" الغرامات لا تعنيكما على كل حال"

" لسوف تعرف المنطقة أول كوراط لا يولي مظهره كبير اهتمام"

وسرعان ما تبارت الأذهان في استغوار نقاط القوة التي يتوفر عليها بوغريبة، لا شك أن له حبالا قد أوصلته إلى مراده بعد أن استغلها أيما استغلال، إنها فكرة جاءت بها حليمة فأعطت الحدث أقصى أطوار توهجه.

" ثقي أن الرابلة هي السبب"

وزمت زينب شفتيها استهانة بما تسمع:

" وما دخل عاهرة فيما يحدث؟!"

" قد تكون على صلة بالقايد أو بالباشاغا أو أو، إنهم جميعا كذباب الدمن"،

وتسرب الحوار بحكم العنصر الجديد الذي ينطوي عليه، فقرر الشيخ بوخلوة إعلان الحرب بصورة مكشوفة، إذ ماذا يعني السكوت غير الهزيمة؟ وحدّت الوعكة نوعا ما من نشاطه فأوكل أمر النفير إلى الشيخ معلى.

أبرقت عيناه المحمرّتان:

" ما رأيك في تقديم هدية فاخرة إلى الباشاغا رأسا؟"

وأجاب الشيخ معلى في مبالغة غير معهودة فيه:

" إنه أثقل وزنا من هذا القايد المتلاعب "

وزفر مهتاجا:

" خيفتي أن يتسرب أمر مسخرتنا مع بوغريبة إلى دوار الشيخ الفُضيل!؟"

وقال الشيخ معلى صادقا:

" سيثبت القايد يوما أننا أكثر ولاء له من غيرنا "

في هذه الأثناء وفد على خيمة الشيخ بوخلوة سي محمد والناصر والشيخ المكي وفريق من تلامذة المصلى العام يطمئنون على صحته.

وأعطى الشيخ مبارك نفسه حق تهيئة الشاي؛ والشاي مادة قالت بندرتها أعوام القحط المتجهمة.

إن كبريات الخيم الشهيرة بادخار أرفع أنواع الشاي على الإطلاق، لا تحتوي صناديقها اليوم إلا على فتات من الشاي الدقيق، ويجتذب الشيخ مبارك تنهيدة من أعماقه ويقول:

" مذ أن تعطلت القوافل صار هذا أشهى مشروباتنا "

وترنم وهو يعتدل خلف الصينية:

لــو كان غاب السكر امرارة الحدج فيه(7)

كان بعض من زار العرّاف عجينة في هذه الأثناء، قد أذهله ما يصنع، إذ أقبل على ما بين يديه من رمل يضعه في كيس صوفي ويقول:

" هو زاد الرحيل هو زاد الرحيل"

" أي رحيل ؟!"

" الرحيل إلى حيث البركان"

وعلق الذي سمعه:

" المعتوه !!"

ومع المغيب الموالي عاد الكوراط على سابق هيئته يحمل نبأ ما.

الفصل الثاني

تجليات ليل المسير:

لم يكن دوار بوغريبة وحده يخب السير تلقاء القرية تحت حوافر خيل "الحركىَ" وعجيجهم المتعالي كما توقع جمال، بل إن تخوم القرية كلها تزدرد المواكب الوافدة في هرع لا يخلو من عنف.

وحين كان الراجلون ينفجرون سبابا مكبوتا في وجه هذا الحركي او ذاك، ممن يروقهم رفس الأمتعة البشرية المتحركة بحوافر الخيل، كان بوخلوة ينتهرهم تحليا بروح الانضباط التي عُرف بها، فما يهمه هو فقط أن يصل الموكب في حينه المقرر.

فحسبه أنه خص نهارا كاملا لإعداد هذه الرحلة، حيث أعرب الدوار عن تضامن قل بين أفراده، لم يُنعت به من قبل بل وحتى أيام موسطاش.

ولقد بلغ هذا التآزر حدا جعل الواشمة تحصل على بغلين لنقل أمتعتها، التي كان في الواقع يكفي لحملها جهد جحش كما علق الشيخ معلى.

القرية، كعهدهم بها غافية تتمطط ديارها الشديدة الإدغام، وقد حاصرت عنق أكمة معزولة لتعطيها شكل هرم متعدد الأبواب؛ تعلوه قلعة من طراز هندسي مغاير، هي قلعة ضابط شؤون الأهالي التي تمسك بكفيها الخلفيتين جدران الثكنة العسكرية.

هذه القرية المقذوف بها كلسان بين فكي مضيق، لا تقاوم لفحات الحر المتأجج الا بخضرة الوادي الوارف النخيل، رغم ما تفرزه بركه المعرشة من أسراب البرغوث والناموس والذباب، وأكثر الحشرات تحملا للزحف والطيران بعد المغيب.

وبأسفل الأكمة الصومعية، تنبسط أرضية صلصالية بيضاء غالبا ما مثلت بيادر لدرس محاصيل الحبوب أعوام الغلة؛ وأين نحن من أعوام الغلة؟!

بمحاذاة البيدر تصطف أبنية طوبية قابلة للانهيار في أية لحظة، إنها قوام الرواق التجاري / الخدماتي للقرية، فهذا الوصيد القصير النخلي الخشبات، إنما يقوم مقام المعمل الصناعي رغم بساطة عدته، إنه مقر الحداد " صالح "، ذلك الحرفي الذي لولاه لفقدت الأحصنة نعالها، والمجارف بعض صلاحياتها، والأباريق والقدر والبنادق، وكل ما هو حديدي فعاليته، إنه وحده المخول للاستزادة في عمر الأدوات الحديدية وإلا تقاعدت قبل الأوان.

و"صالح" انتسب إلى مهنة الحدادة مجبرا، لأنها آخر المهن تشريفا لصاحبها في قواعد القرية والدواوير من حولها، فرغم حاجة الجميع إلى السنديان والمطرقة، لا يعدو كونه "نياطيا" وهي معرة ما وراءها معرة.

ولكم كان المتجران المحاذيان لحدادته، يبدوان أنيقين بالقياس اليها، إذ تقتصر مبيعاتهما على ما يتصل بالعمل المطبخي من كبريت وزيوت وبُن وشموع و و.

أما خياط القرية فلايزال يحتفظ بتجهمه الغريزي، أمام كل زبون بعد أن قتل الاقتراض في نفسه طموح المهنة، وهو المحترف الذي تستند أعماله إلى عقود من الخبرة المشهود بها في المدينة.

هكذا كان يصارح بعض أصفيائه من الزبائن في ضيق، جازما أنه لو غادر القرية لاضطرت إلى دفن موتاها بدون أكفان.

أضرحة الأولياء الناصعة الطلاء وحدها تعتزل الأكمة القروية ،وكأنها في نظر الجميع تسهر على أمن القرية، وتدرأ عنها أخطارا محتملة.

القرويون من أعالي أبنيتهم المعفرة، البالغة الالتواء يتطلعون في انشداه؛ سيل بشري متعدد الفوهات يغمر القرية، إبل، أحمرة، بغال كلاب، خيول، ومشاة، الكل يئن بحمولاته، وانبرى الصبية في ابتهاج يلوحون بأيديهم ويتصايحون في جذل:

" إنها الوعدة! إنها الوعدة "(8)

" الوعــدة ؟!"

" أنظر إلى الخيول سيطلقون النار أنظر"

وفي تقطب:

" ولكن كان على بوسنة أن يزرنن؟!"

فعلا لقد ألفت الخيم أن تُضرب على امتداد باحة البيادر، فما بالها تتجاهل مواقعها؟ ومن تقاليد الخيل أن تتفاءل بالمشوار الأول فور بلوغها ثنية الوادي، فكيف بها ترتل خلف الجمال في حياد؟

" ليست الوعدة إذن"

" وما هي إذن؟"

أجل ليست بالوعدة كما لحظ الطفل القروي، فعملية الإنزال يشرف عليها الجيش الذي يبدو أن الحركَى أوسع دورا منه فيها، إنهم كما لو لم يكونوا جديدي عهد بالتجنيد.

وحين قذف أحد الحركَى بكيس الدقيق الذي كانت الواشمة تحاول زحزحته من مكانه حانقا:

" اغربي أيتها الـــــ "

همس الشيخ المكي إلى سي محمد وهما ينزلان الامتعة:

" إنهم يخافون علينا من قطاع الطرق!!"

فابتسم على مضض دون أن يجيب.

ضُربت الخيام طوابير واحدة تلو الأخرى، يتضمن كل طابور حوالي عشرين خيمة مرقمة بالطلاء الأبيض، فغدت القريـــة بطوابير خيمها تبدو ضيعة تتحلق بها دروب من أشجار الكروم.

ولأن للبادية وجهتها في الحركية، استحالت الخيم مع الزمن مقبرة عديمة الدبيب تلفها الرتابة القاتلة، إذ ماذا يصنع رجالات الدوار ونساؤه في رقعة حرجة من الأرض كهذه؟!الأفق بدوره لا يبدل بزيه آخر، كل شيء تدمغه هدنة مفتوحة الأجل، إلا مقبرة القرية بعيدا من ضفة الوادي وحدها لا تؤجل مواعدها كدقات ساعة.

الكل يبكي دون أن يسجل الدوار قتيلا بعد، منذ أن وفد على القرية، فالبكاء ليس بتابع للموت فقط، والموت ليس انتسابا إلى المقبرة فحسب؛ الهلالية بعثر الرحيل آمالها في الزواج من ولد بوتفاحة، والواشمة يشتد وجيبها خوفا على العناز المتخلفة في حمى يعقوب، وزينب والزانة ليستا بأقل تجلد وقدور قد غادر إلى الجبل، وسي محمد يكظم لوعة، والشيخ المكي يجس شهامته السهوبية أمام معاكسات الحركي الشاب لوحيدته حليمة جهارا، والشيخ مبارك اضطر تحت الواقع الجديد إلى إهمال جواده الذي شكل عنوان شخصيته الى عهد قريب.

والشيخان بوخلوة ومعلى يتوجسان من عودة القطعان إلى الدوار، وهو أمر لا يستبعد أمام تلميحات ضابط شؤون الأهالي، وعطاء الله لا يطمئن كثيرا إلى صفة النصف مدني التي يزاولها.

أشهر فقط تفصل المحتشد عن مضاربه السهوبية، وقد اقتيد مخلفا إياها تحت وصاية القطعان ورعاتها، ولكم استعصت فكرة إبقاء القطعان بمراعيها عن فهم ضابط شؤون الأهالي، قبل أن ينزل عند رغبة المشايخ مستحسنا كتمان قابليتها للتهذيب، في ضوء مستجدات سياسته نحو عالم السهب.

فالبدو يتشبثون بطرح قضية أغنامهم ذريعة للاحتفاظ بميزة الترحال، وخليق بإصرار مبرر كهذا أن يخضع الامر إلى تدرج زمني شبه بطيء، يتوانى في طواعية ما لم تحدث هناك مفاجآت.

وجهلا بكل هذه الثوابت في منهجية " الصاص" (9) استمر بوغريبة ويعقوب والرومي يمرحون خلف القطعان، على غير كبير اكتراث برحيل الدوار وقد تطوبر، ليشكل أحد أضلاع المحتشد القروي المستطيل الشكل.

وفي مثل هذا الوقت من كل أمسية يعودون إلى حيث كان الدوار مقيما على أيام طلاقته، وقد أقفرت مضاربه فأضحت مجرد حظائر ومخلفات عديمة النفع من القش ومتقاعدات الأواني.

يعقوب ينهمك في عجن خبز سيفئده، والرومي يضرم نارا في أعواد رتم ذاوية، وبوغريبة يلاحق حلوب العنز بإناء سعفوي مشروخ المقبض.

وفور تناول الخبز والحليب تتأهب القمم المتطلعة في وجوم لإشباع نوازعها من نفحات القصبة.

القصبة وحدها تتعامل بتلقائية وكأنها تحمل ضد الأحداث حصانة، ربما لأنها بكاء صرف في وجود دائم التجهم؟

والإجهاش قاسم عضوي يربط السهب بالمحتشد، وبسجن القلعة صار نطقا أمام غلظة الاستنطاق.

وتحت وقع النغم السابح في تموجاته تلقاء تعاريف المجهول، يعرب يعقوب عن وجدان ممزق يلهو بثناياه تسهيد مبرح:

" أنعودو لبلادنا ما ردنا مال فيلاج الغربة أنخلّوه أورانا "

هذا البيت الوافد بعفوية من محفوظات يعقوب، يرنّح أعطاف بوغريبة باستمرار، فلطالما ترنّم به " زهير" خلف البحر، رغم ضآلة حظه من اللغة العربية بملحقاتها، زهير مثال المفرنس الضالع الذي يشحن لغته دائما بأغراض لا يُطمأن اليها عادة.

"زهير" منذ لحظات البوليس، أخذ وجوده شكل الأسطورة، ككوكب سهيل اختفى تاركا قوافله تضرب في متاهات الإصحار

ويعقوب حين يردد البيت الشعري في حنين الثكلى، فإنما لينسحب بأثر رجعي على تأوهات بوغريبة، ولترتسم طيفاويات ندائه بخيال الرومي فيعاوده الحضور، تتجسم اللحظة، يتشخص الصوت، والوجود ينغلق انغلاقا يقول بالأبدي.

ومريم اسمها يرسم مقطعين؛ شهدا "مرّا" و"يما" متموجا، لا يحده يابس.

بكل يسر اقتطف يعقوب أحرف الشطرين مغمسة بدمع "خيرة " البوذنيبية(10) ساعة الفاجعة، وكأنه يضيف إلى مشاعر صاحبيه المتقدة قدرا أخر من البزين العازل للدخان؛ ولشدة تفاعله مع نبر الإرجاعات الصوتية التي يرتلها يعقوب في تهجد العابد، رمى الرومي بالقصبة في عنف ويعقوب قد تسنم ذروة الإلقاء فأودع غمرة اللحن قياده.

المشهد يراجعه، أباطح الدوار وقد أقفرت، وكر حليمة الذي يحاول القمر استبداله بدمن من حلفاء متعبة السعف؛ فيستعير حسرة الجاهلي وهو ينعى على المروج اكفهرارها:

لا تقنط لو كان في قلب الحجـــــرة ولا تزهى لو كان فوق أعياد تسير

بعيني شفت اليابسة رجعت خضــرا بعيني شفت الناشفة وللات غديـــر

أحقا ستخضرّ منحنيات السهب إثر جفاف؟ ويقبّل هشيمَها المتشرذم غيث؟ أتعيد الخيم المطوبرة سابق صورتها على المنحدرات وذلول الآكام؟

يعقوب يستبعد هذا، الرومي لا يعلق عليه كبيرعناء، وبوغريبة لا يستشف المسالة من وجهها هذا.

أحايين الليل تترى كأنفاس مزكومة دون أن تتوقف عند تساؤلات مربكة كهذه، نام بوغريبة وتناوم يعقوب إلى أن تجاوب شخيره مع أنغام القصبة التي تتأبى النوم على دأبها؛ هامسها الرومي فسخت وحادثته فأنصت.

السهب ما فتئ آهلا بالرعاة، النيران المتناثرة على امتداد فيافيه تؤكد للرومي هذه الحقيقة.

الرعاة آخر من ينعم بالحياة، وآخر من يموت، الراعي ذلك الاسم التهميشي الأحرف الذي لا يرسم إلا في شكل إضافة، وحده يثير سكونية السهب، رغم أنه أبدا في موقع العربة، بالأمس خلف الدوار واليوم خلف القطيع، مضاف هو بالتواتر.

ضابط شؤون الأهالي أيضا لم يشذ عن المشاع، أغفل أمر الرعاة ولو إلى حين، خاطبهم بلغة أخرى كأفراد من القطيع؛ بالواسطة.

" لا ضرر في مكوثهم بعيدا عن المحتشد"

الرومي لأمر ما يعدل بدون مقدمات عن الاستمرار في الموّال، محاولا ابتداع لحن للأبيات المحظورة التي اقتيد مداح السوق إلى السجن بجريرتها، بوغريبة أقنعه ببعض خطورة ما تنطوي عليه كلمات بسيطة كتلك والخطورة إغراء:

"سلّم على الثـــــوار الساكنين الاوعار"(11)

الأحرار ليسوا عفاريت؛ إنهم بوشريط، السياسي، الرومي ذاته لو سكن الوعر لصار حرا. في هذه اللحظة كان بوغريبة يتمتم نائما:

" أمّمــه. خديجة. سيجارة. بيرة. أف. أف. سوزان. زهير. عبد الصابر. أف. أف. أمــه. أممــه"

وتحرك كما لو أنه يهم بالنهوض، وعاوده استرخاء وهو يعاود:

" أممــه. لا أعرفه. أنا عامل بسيط. جئت لأشتغل. فقط. كلا لا أحضر اجتماعا. لا أعرفه. أجهل مضمون النداء"

الرومي يلتقط هذيان زميله في حرص طبيب يتسمع مريضا واقعا تحت التنويم، اجتماعات؟ نداء؟ وانطرح التساؤل، بوغريبة ؟! هل هو حر أيضا؟ طبعا لا مادام لم يسكن وعرا.باريس حانات ومراقص ومخادع تعتصر الشبق، فما صلتها بالوعر؟ وما صلة الوعر بها؟

مطط بوغريبة أطرافه، فتح عينيه في انشداه، بادره الرومي:

" كان حلما لذيذا أليس كذلك؟"

ولم يجب عاوده الإغماض رغم أنين القصبة المتنادي. الليل يتحرك قبل أن يخلي آخر مواقعه، قبل أن يستسلم في تؤدة حذرة كعفيفة يدغدغها إغراء مزمن، يقفز يعقوب مفركا عينيه ليستجمع بقايا أرغفة البارحة، وليعدّ أكوابا مشيّحة تسبق الانصراف المبكر خلف القطعان عادة.

الرومي، القصبة وحدها تدري متى ينام وكيف! بل إن فلسفته في النوم أصبحت لا تثير فضول أحد؛ فالنوم يتوخى استراحة النغم والنغم له مرتكزاته وعمق دوافعه، التي لا يعني نبشها سوى الاستزادة في فورانها.

من أصدر في حقه حكما قاسيا كهذا؟!

أهو بمحض اختياره؟!

ليس من طبيعة المرء أن يصدر في حق نفسه أقسى الأحكام بل ولا أخفها، جبلّته بالعكس أن يدفع ما يوقّع عليه من أحكام ولو كانت أدنى بساطة من اسمها.

الحكم قرين الموت دائما، غير ذاتوي المصدر ولو أنه يندمل بانمحاء الآثار الموجبة، ولأن خصمه هو الزمن بالذات، فالرومي دائم الاقتناع أن هذا الخصم سوف لن يمزّق أوراقه ضاحكا في لحظة ما، إنه نهائي الأحكام وذلك سر تفوقه الديمومي.

ولكم كان يعقوب محقا في دعوته للأيام بالاستقامة، بدل عوجها الفطري وقد تتابعت على وتيرته:

"يا لايّام أتسقمي مالك عوجـــــى وقولي لي آش من أسباب ظلعتي به"

السفح القائم في مناعة عملاق متحجر، يدعو الجميع للحاق به، القطعان يشتد ثغاؤها وقد فضّل بعضها أن يهرول كما لو أنه ينكرعلى المسافة امتدادها، يعقوب يشرع في حياكة جورب وهو يتنقل خلف الأغنام دون أن يخل سيره بتجمع ما تخلف منها، بوغريبة يدندن محملقا في القمم الصامتة التي سيقضي بها يومه،

أما الرومي فقد خف به قطيعه غربا، حيث أخفت شبحه أشجار العريش المشذرة في غير نظام عبر ضفتي الوادي.

وانسلخ النهار مؤكدا روتينية الزمن، ليجمعهم مساء أكثر رتابة وليفضي بهم بدوره إلى صباح توأم، لولا غبار أخذ يتطاير فكاد يحجب الأفق.

" إنها كوكبة خيل؟!"

قال يعقوب وقد وضع يده بشكل أفقي على جبينه، كتحية جديد عهد بالجندية، وقال بوغريبة فيما يشبه الغيض:

" إنهم الحركى بلا ريب؟!"

ووقف الرومي بعد أن نحّى كيس زاده جانبا:

" وفي مقدمتهم فارس بلباس مدني، آه إنه مراد جاءوا به دليلا"

وعوض أن يترجل الحركي الذي كان يتلو " مراد"، بجواده الأدهم وبشرته الضاربة إلى السمرة وشكله المكعب، استفهم من على صهوة الجواد فبدا طاقم أسنانه الذهبية:

" هي ذي أغنام الطابور 21 فيما أعتقد؟!"

أجاب بوغريبة شاخصا ببصره إلى سحنة الرجل تارة، وإلى رقاب الخيول المشرئبة خلفه في انتظار أمر ما:

" أجل"

" أيكم بوعلام العايدي، بوغريبة؟"

" أنا"

إلى هنا ترجل كبير الحركى ماسكا اللجام، مشيرا إلى بوغريبة أن يتبعه، وعلى الرغم من أن خلوة كهذه لا يُطمئن اليها، فإن خطوات بوغريبة المتزنة لا تنبئ إلا باستخفاف، فهو لم يكن حديث ألفة بالبذلة العسكرية لكي يَرهبها، ولا هذا اللون من التعالي الذي يتعاطاه رجالها فيخافهم.

" غنم من هذه التي ترعاها؟"

" غنم الشيخ بوخلوة"

" ومن أيضا؟"

" هو وحده "

امتقع لون ضابط الصف كما لو أنه مُني بخيبة، وقال محتدا هذه المرة:

" وغنم الناصر أليست معك؟ مع من هي إذن؟"

"لا أعرف له غنما"

وضحك ضابط الصف:

" وما مصدر معيشته؟"

" إنه رجل يحترف فن القنص ومن فائضه يقتاتون"

" وأين هو الآن؟"

" في المحتشد أو في المدينة"

" لا أظن أن معلوماتك متأخرة إلى هذا الحد؛ على أي حال عليك أن تزور ديوان الأهالي أسبوعيا لإثبات وجودك"

" ولكنني أقوم بهذه المهمة لدى الدرك بالمدينة، ومنذ سنوات!"

" لا شأن لك بالدرك منذ الآن"

" امنحوني أمرا مكتوبا بتحويل الاتجاه لأتقي غضبة الدرك"

" ديوان الأهالي هو كل شيء، لقد حل محل الدرك والشرطة و المستاتور ذاته أفهمت؟!"

امتطى ضابط الصف جواده كما لو أنه غير مسؤول عن إفهام بوغريبة، فحسبه مشافهته بإذن "الصاص"، وقبل أن يلكز الحصان للانطلاق به أردف:

" أما الأغنام التي سألتك بشأنها فأفضّل أن تُبقي أمرها سرا بيننا"

وهز بوغريبة رأسه موافقا، ما أن لحق ضابط الصف ببقية الحركى، حتى ألفاهم متحلقين حول الرومي، طالبين منه أن يستنطق قصبته وقد نسي أن يخفيها كدأبه.

" إنني لا أتقن عزف أي لحن لازلت بطور التمرين"

" اعزف أي شيء"

وعبث الرومي بلحن مظهرا عجزه عن تمديد النفس، وهو المنعوت بآلية مزج العملية التنفسية بشهيقها وزفيرها دون إخلال بالإيقاع، واختتم اللحن المقتضب بقوله:

" أوف لقد تعبت"

وقهقه الحركى متغامزين وبادره أحدهم ساخرا:

" " أنت عازف ماهر بوسعك أن تلتحق بالشيخ حمّادة"(12)

وتقدم ضابط الصف ليوقف هذه القهقهات الفارغة، مستعيدا جاذبية شخصيته كقائد كوكبة، واستدار بجواده موجها كلامه إلى الرعاة الثلاثة:

" ليكن في علمكم أن هذه الأراضي أصبحت محرّمة، عودوا إلى القرية مساء يومكم الثالث، وحين تنطلقون منها لا تتجازوا مسافة (5) كلم في الاتجاهات جميعها".

وقال يعقوب:

" ولكن الـــ "

وقاطعه ضابط الصف:

الأمر مدروس مع أعيان المحتشد بما فيه الكفاية"

قفل الحركى مستأنفين طريقهم تلقاء يبقية القطعان، وتسمّر بوغريبة جاثما وكأن الأمر قد أربكه، ولم يكن بوسع يعقوب أن يسائل نفسه أو زميليه أو لا يدري.

" ماذا يُراد بنا بالضبط؟!"

وواصل بوغريبة انشداهه والكلمات ترفض أن تُصاغ.

" الخونة، يرغبون في الاستماع إلى ألحاني!"

علّق الرومي وانفجر بوغريبة ضاحكا:

" لو فعلتها إذن لتعرضت لسخط الأحرار"

وابتهل اليه أن يفصح:

" أحقا؟ هل في أنغامي ما يغضبهم؟! هل في مثل هذا خيانة؟!"

وآب بوغريبة إلى تجهمه السابق، وقد شرع في فتح فوهة الحظيرة لإخراج الأغنام.

يعقوب يحمد مغبة ما حدث؛ آه لو عمد الحركى إلى تفتيشه إذن لعثروا على المظروف الرهيب، وقد تبطّن صداره الصوفي المفلّج الألوان، التحق ببوغريبة يلتمس استشارته:

" ماذا أصنع بالمظروف يا بوعلام؟"

" كان عليك أن تحمّل مراد أمر إيصاله؟"

" هل جننت؟ أحمّل رجلا يصطحب الحركى مظروف الناحية؟!"

" أو تشك في مراد؟"

" كلا، ولكنهم يتحلقون به كقبضة دملج"

" إذن انطلق إلى المحتشد فبلّغ أمانتك"

" والطريق؟!"

" لا اخالها مخيفة الى هذا الحد، وأين وجه الريبة في سفرتك إلى المحتشد لتهيئ للقطعان رواحها بعد يومين؟"

" لكم يشدني ذكاؤك، إذن سأسافر"

وما أن بلغ ضفتي الوادي حتى أعترضه الرومي:

" إلى أين؟"

" إلآ القرية "

" هكذا تقرران في غيابي؟!"

الرعاة أصبحت أيامهم بالسهب معدودات، فمع مغيب ما قبل الغد ستبرح القطعان مرابعها منكسة نحو المحتشد الغافي، الاحتشاد آخر ما توصلت اليه فكروية ديوان القلعة، وفعلا فقد امتص من السهوب حركيتها.

الوحوش ستختلي ببقايا الأدغال تتدبر أمر الانسياب، والعين ستبكي ولا شك فرقة الصبايا ومرح الخراف، والسهب سيبتلع الوحدة في سكون الحكيم، والطيور آخر من سيقرر الرحيل بعد أن تذرو أعواد عششها غضبة الغربي.

يعقوب ألفى الدوار وقد سكب ظروفه في منظومة المحتشد، رغم أن بعض مشتبهاته دفعت بالديوان إلى معاملته بنوع من الحدة قد يفوت بقية الدواوير، ولتجانس الاشتباه أصبح دوار الشيخ الفُضيل مبعث قلق أيضا.

الأمسية التي التحق فيها يعقوب بالدوار ملقّحة بأحداث أخرى، فبعيد منتصف النهار وصل رجل الأشعار متأبطا أخر مستجدات السهب.

كان يعتقد مخلصا أن ما يحمله بين جوانحه، أدعى إلى المضاضة مما ينطوي عليه مظروف الناحية، فلقد ألحقت القطعان بالمحتشد ألم يكن نبأ مأتميا يقطر لوعة ؟! فعلا لقد أجبر الواشمة على البكاء مذ إعلانه، إذ ماذا عساه أن يعني تدجين القطعان غير إبادتها؟

ولولا هذا النبأ المؤلم الذي حمله مظروف الناحية، لهاجم السيناتور الشيخَ بوخلوة، مؤاخذا إياه على إذعانه لأمرعودة القطعان أمام ضابط شؤون الأهالي.

الفاقة تسفر كل يوم عن إحدى زوايا وجهها المخيف؛ أما اليوم فهي تتبرج سافرة، لسوف يتساوى المالك والراعي أمام حدة التدابير التي اتخذت في حق الماشية، وعلق الشيخ بوخلوة وكأنه يصرف عبئ ما حدث عن نفسه:

" تذبذب الرعاة دفع الديوان إلى اتخاذ مثل هذا، ما دخل الرعاة فيما يحدث؟ كان عليهم أن يحتفظوا بمواقعهم كرعاة"

وقال الشيخ معلى مجاريا:

" عهدنا بالراعي لا يدس أنفه في شؤون الجماعة"

السيناتور غادر ردهة المصلى، لا يعرف إلى أين؟ وبخيمته أقام عزلة بكائية، كان حذرا في بكائه، ومثله فعل سي محمد فور أن انفض من حوله مجلس الشيوخ، إن مظروفا كالذي حمله يعقوب مع أصيلان هذا اليوم، لهو خليق أن يُبكي المحتشد برمته وقريته معه، إن قشعريرة حادة شعر بها سي محمد وهو يفض المظروف لأول مرة حيث التصقت عيناه بكلمات غير قابلة للابتلاع:
((الناحية تنعي إليكم استشهاد بوشريط))(13)

والأسف يشل من نبراته الوهنة فاه السيناتور:

" مات بوشريط إذن؟!"

لوقع البيان الصغير الحجم، اهتزت قيادات العروش بكل فروعها، وحبا عبر الخيم كألسنة اللهب في بقايا هشيم، فبوشريط مهما يكن من أمر، هو الزر الذي ألحق النور بخيوط الشبكة أيام الارهاصات الأولى، وعقدت النساء حلقات شبه سرية، مما دفع بالشيخ معلى إلى التساؤل:

" عجبا تبكيه نساؤنا كما لو أنه واحد من مشيخة الدوار!"

وقال الشيخ بوخلوة:

" الموت مصدر بكاء دائما"

الفاجعة لم تترك لسواها حيزا في اليوم الثاني، فلقد همّشت أمر القطعان الى حد الضآلة، فحين يتعلق الأمر بالمشترك يتوارى الفردي خجولا.

السكون يحارب الحركة بالمُصلّى العام، والنظرات حبلى بامارات كاتمة للظل، ويعقوب مأخوذ بما آل اليه الدوار، يعيد أحايين الطلاقة نحو القنص والسقي والاحتطاب.

يعقوب، إلى هنا أدرك سر اللغم الذي جاء يتأبطه مذ يومين، كان فاتكا إلى أبعد حد، ما أغباه! لقد كان في جيب صداره الصوفي فاجعة وهو لا يدري؛ بل لكم ترنم بالأغاني ليلا و نهارا واللغم بجانب صدره!

صحيح أن كل هذه الطوارئ ـ في روع يعقوب ـ لن تسكت قصبة الرومي أو فكاهات بوغريبة، إلا أياما ولكنها ستعمّق الجراح إلى أبعد مما ألف الوجدان السهوبي.

إن المآسي لتخترق رومانسيات الصدور، فتلقي من ضراوة التأثر ما يجعل الحزن يتحجر في أغوارنا. لكن ماذا يجدي الحداد أمام سيول أنبأ الموت؟!

مريم. لا يخالها يعقوب تعدّ حدث القرن في روع الرومي، فالموت قد افتقد فجائيته وصار تعاملا روتينيا، عجزت طاقة الحزن في النفس البشرية عن تغطية يومياته؛ بات يستبد به التبرم ومراد يعلن أنه سيقتل الحركي إن بدا منه ما يغض من كرامة الدوار.

" سأغتاله وألتحق بالجبل، كرمة حليمة في ذمتي"

وعلى الرغم من أن كرامة حليمة تعني الجميع، فإن هاجسا ما مر بزينب، صحيح أن حليمة رفيقة العمر، ولكن أن نضحي بمراد في سبيلها فمطلب باهض، وتخمن زينب وهي تستفتي قواها الدفينة تجاه مراد:

" والذين التحقوا بالجبل دون شرط؟! الجبل هو معيار الرجولة"

كذلك قال الشيخ بوتفاحة مؤاخذا شيخوخته، التي أجبرته على الحياد، الخواطر التي تربطهما مشتركة وإن اختلفت صيغها المطروحة، فزينب ترصدها من هذه الزاوية حيث تتصارع عاطفتان جياشتان في صدرها بشأن مراد، ويعقوب يعتصره أمر الشيخ المكي الذي يعلك غضبه في صمت، كجواد كريم يشارف الإهانة.

إن الحمل ليستند بكل ثقله إلى صدر السيناتور، الخلاص يتوارى هاربا بالمطلق، هل يتنازل ليطلب إلى الشيخ بوخلوة إشعار ضابط الحرب النفسية بأمر الحركي الدائم التسكع قرب خيمته، إلى أن أصبح يُلقب بالحركي العاشق؟!

صيغة التنازل هذه يمجّها، لم تأتلفها فطرته، فهي نزعة تُكتسب وهو وراثي ناصع، سيثأر لشرفه إن دعى الأمر ويغادر متجاهلا كبر سنه ماذا في ذلك؟!

" ألم يغادر رجال قبله في منتهى الطواعية؟ فكيف بمضطر إذن؟"

ودون أن يزايله فورانه تهجّس بإشعار القسم مع يقينه أن الظروف العسكرية الراهنة، تحجب الأمل في كل بادرة، وبادره سي محمد وهما قابعان بالمصلى الذي أقيم بين خيمتين من خيم الطابور:

" لم يعد قوام الدوار الا بضعة شيوخ ونسوة، كل واحدة منهن مرشحة لأن تصير أرملة بين الحين والأخر!"

وغمغم الشيخ المكي؛ إن مأساته أخطر من أن تُذاع، بها لم يكاشف أحدا حتى الآن، ليس هناك من يلّم بفحواها إلا مراد الذي أدركها بترصده للحركي العاشق خوفا على زينب، فأفضى بالسر الرهيب إلى خطيبته مقسما بالانتقام لشرف الطابور.

وقال السيناتور مغيرا مجرى حواره الداخلي:

" وعطاء الله؟ لقد تطاولت مهمته في إيصال المؤن إلى القسم، إن أمره لمزعج"

" من عادته أن يستطيب أحاديث السياسي الشيقة"

آه. لكم تمنى الشيخ المكي أن تُحظى حليمة بشاب في وطنية السياسي وثقافته، ولكن الحظ شراع لا يلتزم بمرفأ معين في مغامراته الضلالية نحو المجهول، إنه يتلولب، يتحلزن، يتعدد في عجز كسبابة مهتزة إبان أوان احتضار.

قبل أن يتطوبر الدوار كان باسم الإغراء، رغم تجهمه المزمن

ظل يحتضن من الممكن ذرة حلم واعدة أخذت تتبخر، تنسحب تدريجيا لينفتح للخيبة الأليمة تجويف غير متناهي القرار.

ونفوس الرحل كأزهار الحشائش، إنها تناوير لا تينع الا خارج الكهوف حيث أشعة الشمس وحيث النسيم الطافح؛ والقرية بهذه الصورة كهف خانق للنبات، من يتأقلم مع التبطل؟ من يتقاعد شابا؟ من يموت حييا؟!

القرويون دأبوا على الاستقرار، لأنهم وجدوا عامله مجسدا في الاستزراع، لقد مطّطوا عالمهم الصغير إلى أن صار يحمل نفوسهم، وحتى ذلك الحرفي الحداد" صالح"، استطاع أن يخلق كونا من عنديته يتسع لهمومه ومطامحه، أما هموم البدوي الوافد فيستحيل أن يُختزل أفقها.

وقبل تأدية صلاة المغرب لحق الشيخ بوخلوة بالمصلى، بعد أن قضى نصف يوم في اجتماع بقلعة ضابط شؤون الأهالي إلى جانب وجهاء الدواوير، وكوراط القرية الذي أبدع بوخلوة في الثناء على مواقفه الشجاعة.

وزفر الشيخ معلى فور انقضاء الصلاة مستفهما:

" ماذا هناك يا شيخ بوخلوة؟!"

وهو يتكئ إلى جانبه:

" أسوأ بعد سوء":

ورشقته أشعة الأعين مجمعة على السؤال:

" مـــــــــاذا؟!"

" لسوف يُسيّج المحتشد بأسيجة شائكة وملغمة، وعلى كل طابور أن ينتدب خمسة رجال للمشاركة في هذه العملية"

" نسيّج أنفسنا بأيدينا؟!"

تساءل السيناتور وقد تجاهل الشيخ معلى سؤاله بقوله:

" ثم ماذا؟"

" بالسياج بوبتان فقط تربطان المحتشد بالمراعي المتاخمة، على أن تخضع القطعان للمراقبة أثناء رواحها"

" وأيضا؟"

" مغادرة المحتشد محظورة إلا بترخيص من ديوان القلعة يحدد مكان الإقامة ووجهتها، والقاعدة ذاتها تطبق على كل ضيف يؤم المحتشد"

ووثب الشيخ المكي من مكانه وكأنه اختنق وهو يصيح:

" كفى كفى احتفظ بالباقي لنفسك كشيخ دوار"

وتنهد الشيخ بوخلوة:

" إلينا أصدرت المدينة شغبها واستقرت قريرة العين "

وبادره مراد:

" إنها هي الأخرى تغلي"

" ومن أنبأك؟"

وارتجف الشيخ المكي حنقا وهو لايزال قائما يبحلق في الأفق:

" مالنا ومال المدينة؟ ذرونا في مصابنا"

وقال سي محمد:

" اتق الله يا شيخ ظننتك أكثر تحملا"

ودون أن يرد جلس، مراد كان على دراية بما يختمر في ذهن السيناتور، إنه أجلّ من أن يخاف أو يتقهقر لولا أن طعنته جاءت بحيث لا تسهل مجابهتها.

الندم يشل كل أمل ينعقد، أنّى للسوانح أن تثوب ثانية؟ إن التسامح أحيانا يحيل نزعة الصرامة إلى سذاجة ممنطقة فاجعة؛ كان عليه أن يزفها لأول خاطب أيام تكاثر خاطبوها، من سيجرأ على طلب يدها؟ من يناصب حركيا عداء سافرا؟؟ !!من يلعب بالنار؟!

ما يحز في تضاعيف جوانحه أن الحركي، أقسم بشرف بندقيته لينالنّها حلالا أو حراما، هكذا ردد حرفيا على مسمع من السيناتور الذي ألهبت كلمة الحركي إباءه فأجاب:

" إن مصرعي لهو الجسر الموصل اليها"

ولأنه حلّق بعيدا على أجنحة حيرته أغفل السيناتور أمر الشيخين معلى وبوخلوة، وقد اختليا كما لو أنهما يضعان أول تصميم لحلقة ثانية ستعتزل المصلى العام.

الظلام يكسب المحتشد ضبابية دكناء، لا يكفي لانقشاعها توهج النيران المنبعثة من الخيم الجاثمة في صمت.

وبين الفينة والأخرى يومض الضوء الاستكشافي من برج المراقبة ماسحا المحتشد بتياره القسطلاني، ولكم كان يروقه أن يركز على هذه الحلقة او تلك، إمعانا في استكناه مضامين الطوابير.

السيناتور تلتصق عيناه بشبح رمادي اللون متحرك في وجوم تلقاء خيم الطابور، من يكون غيره؟ لأول مرة يفكر في الخنجر الذي يتقلده؛ لقد جاء دور " البوسعادي" إذن، ودون أن تضطره المفاجأة إلى إعلان نفير حرب، انطلق الشيخ المكي مهرولا وهو يفتض سيور خنجره، لسوف يروينه من دماء لوثتها الردة.

نفسه تحدثه أن صراخا سيتعالى؛ صراخ استغاثة، كان عليه أن يشير على حليمة بالمبيت في خيمة أخرى، غير خيمتها درءا لمثل هذا الذي سيقع، لكن.

كل ما في الأمر أنه قرر أن يموت، فالحركي لا يقدم على هجوم ليلي كهذا وهو أعزل، ولكن بعد أن يقول "البوسعادي" كلمته في الصراع.

سنوات قليلة تقضت واسم الشيخ المكي علامة وقوف في وجه النقاط الجمركية على امتداد الحدود، واليوم تمتحنه اللعنة في عقر داره!

الفطريات المترسبة تخور في غضبة إجماعية طالما توجسها الدوار، وقد اختفى الشبح خلف حظيرة احتياطية أعدتها " بنت النمر"، وتساءل الشيخ المكي في وجه الظلام وهو يطأ الأرض وطئا خفيفا:" هل يتعلق الأمر بهذه الأرملة البائسة؟!"

أجل أن الشبح يلج خيمتها في ثقة متناهية.

" لعلها وسيطة بينه وبين حليمة مقابل؟ من يدري؟!"

توقف السيناتور وكأنه يعتصر طاقته الموزعة تبعا لفوارق مشاعره، وتدنى من سجاف خيمة الأرملة وهو يمسك على قبضة الخنجر بإحكام يدفعه قرار الموت الذي اتخذه، وعلى ضوء خافت بادره الشبح من الداخل:

" إنك دائم اليقظة يا شيخ!"

" من؟!عطاء الله حمدا لله على السلامة"

قالها كأنه يعتذر لبنت النمر عن كل ما صدر منه في حقها من ظنون، وواصل عطاء الله ووعثاء السفر تشدد على مخارج صوته:

" التجأت إلى خيمة بنت النمر تمويها كما ترى"

وهمس إليه الشيخ المكي منتهزا فرصة انصراف الأرملة لإعداد خبز وتمر:

" إذا سألك بوخلوة عن غيابك، قل إنك كنت بالمدينة هكذا أبلغناه"

" حسنا فعلتم"

" وكيف الناصر وجمال ومن معهما؟"

" التحق الجميع بالقسم"

وأضف وهو يمدد ساقيه تعبا:

" ألم يبحثوا عنهما؟"

وأجاب السيناتور وكأن عطاء الله قد وضع يده على علة في صدره دفينة:

" ليس بعد مع علمي أن الدوار سيسددها باهظة"

وتنهد:

" هذا ما أتوقعه بخشية"

السهر لم يطل بهما فوضعية عطاء الله تستعجل خلوه للنوم، وهكذا انصرف كلاهما إلى خيمته فور تناول ما أسرعت بنت النمر بإعداده كعشاء.

ورغم ما يحمله من مفاجآت كان على الصباح الموالي أن يفرخ فور الإشراق؛ إن ورشة أولى من نوعها شُكلت، الأسلاك الشائكة تمدد في أشكال دائرية، ومربعات الأعمدة الحديدية تنغز على

أجسام الكثبان الرملية كالنبال، ومنتدبو الطوابير يسارعون بإحكام طوقها، وقد وزعوا فرقا على رأس كل منها رئيس يساعده مهندسان عسكريان، واقتضى الأمر من الحركى أن يعززوا الفرق بلكز كل متثاقل بأعقاب البنادق، ومن الشيخ المكي دنا الشيخ بوخلوة فيما يشبه الزهو:

"((حكم جاير ولا قوم فاسدة)) أنظر ما يُقرر أمس يطبق اليوم"

" هذا دليل تخاذلكم معشر الأعيان"

" إنها مشيئة الصاص يا أخي"

واستأنف طارقا موضوعا آخر:

" لكم يخيفني التحاق الناصر وجمال بالجبل ولكم سيحرجني ككبير دوار!"

أجفله السؤال وهو يلفّ صاحبه بنظرة أودعها بريقا غاضبا:

" الشيخ بوخلوة! إلا هذه، لقد بلغك التحاق كثيرين قبلهما دون أن يفتح ذلك شهية أحد للكلام!"

وتدخل سي محمد:

" ومن يفقأ عينيه بيده يا جماعة؟!"

الأطفال يروق لهم مشهد الورش وهي تبرقع توهج الرمال، في انشداه يحدّقون، يتقاذفون بالأتربة وبمنتهى اللذة أسرعوا خلف الجواد الجون وقد امتطاه " الصاص" شخصيا كدأبه.

" إنه أكثر الخيول قدرة على القفز"

قال عبد الله.

" تصوّر لقد قفز فوق عارضة ملعب الحركى دون أن يمسها!"

لاحظ سعيد.

" والركض أنظر أنظر.

ولم يكن وحده يستحث الورش كضابط لشؤون الأهالي، فهناك بالضاحية الجنوبية يتطاير غبار السيارة " الجيب" التي لاشك أن النقيب يستقلها ، فمهمته كممثل لقائد الحامية العسكرية تدعوه إلى تصفح ما يمت إلى أمن المحتشد.

التقيا بعيدا من حلقة الشيوخ حيث لا تجانب الأحاديث كثيرا قضية السياج الذي سيكتم حركية الدوار والقرية، يشاع أن ضابط شؤون الأهالي والنقيب نقيضان؛ فالنقيب رجل دم والصاص رجل حكمة، والرشاش والميكروفون لا يلتقيان، هذه الحقيقة لم يستخلصها الشيخ بوخلوة وحده ولو أنه رائد اكتشافها مما حدا بالسيناتور إلى الرد السريع كعادته:

" ((ولد الذيب ما يتربّى)) كي الصاص كي القبطان"

" الصاص عاقل فرنسيس حر"

" سياسة برك. في جيش التحرير كاين المحافظ السياسي العاقل وكاين اللي يعذب الخونة والمرتدين، السلاح سلاح واللسان لسان كل واحد وطريقه"

" الفرنسيس وجيش التحرير ماشي كيف كيف، العرب أساسهم الحيلة"

وتدخل الشيخ معلى بعد صمت متعمد:

" الصاص يحكم في الشعب، والقبطان يحكم في العسكر"

وبنرفزة أجاب الشيخ المكي:

" الصاص يحكم في الحركى برك، الشعب خاطيه الشعب يحكم فيه القسم"

وضحك الشيخ معلى علنا:

"القسم ما عنده لا صاص ولا قبطان كيفاش يحكم؟"

فصل السلطات بقرية المحتشد شكل محور مناوشات كلامية استغرقت أمسية كاملة، إلى أن عز على الشيخ المكي أن يخلف محاورته الشيقة ويغادر نحو الخيمة حيث سيتدبر أمر المؤن التي سيسري بها عطاء الله فور أفول القمر. وكان على الجمال والبغال أن تئن بما يفوق قدرتها بفعل هذا السياج الذي سوف يجعل مهمة المسبلين جد شاقة، إذا لم تأخذ بالاستحالة. الجمال هي الأخرى اعتزلت رغاءها، إنها تدنو من حمولاتها الليلية كاتمة للصوت ، تناخ كما لو كانت خرساء فتُثقل بالزاد لتنطلق تنشد أقاصي الوهاد.

" الجِمال أصبحت أرهف حسا من الشيخ بوخلوة"

همس الشيخ المكي فضحك واستكمل:

" ومن زميله معلى أيضا"

أقلعت القافلة الصغيرة تتحاشى أي اصطدام بصري مع أي كان، منتبذة من ورش السياج منفذا أخر إلى أن ألقت بنفسها بين ذراعي الوادي مخلفة الشيخ المكي يتحسس أية رجة او دمدمة.

وآب إلى مخدعه يسوقه أمرعطاء الله، إن رجلا يشق الظلام أعزل لهو المغامر بحق في سبيل القضية، إنه هو وآخرون يعرفهم المكي من الطابور المجاور رواد ليل فعلا. إنهم يلعبون بالنار وما أندر اللاعبين بها!

وما أن استلقى على ظهره بعد أن تفقد حليمة وقد خالها نائمة حتى هاجمته بقايا أفكاره، فقبل البارحة سلّمه عطاء الله رسالة من قيادة القسم تعيينه قائدا للعرش، لهذا الطابور الذي لم يعد متجانسا إلا في لون خيمه؛ أرامل وأشباه أرامل وأيتام وأشباه أيتام وعجزة في غياب الشيخوخة، والشيخان المنشقان المفتونان بهوس الكوراطة، ومعاكسات الحركي، والمؤن والعلاقة بتنظيمات

العروش المجاورة، وتعليم الأطفال في مدرسة القرية بأبوة مستعارة وو، لقد أصحر القائد الأول الذي زرع نبض القسم في أوصال الدوار، كيف يتسلل النوم إلى خلد هي ذي شجونه؟!

ويطفو الإباء البدوي ليعتلي الشجون، خيمة الشيخ المكي مهددة بالاجتياح في كل لحظة، وكأنها لم تمثل بالأمس القريب عرينا جمركيا مهابا، تحاشت الطيور اختراق مجاله؟ لقد أفقدها المحتشد مناعتها روّض جماحها.

الحركي الشاب لا يقلع عن التسكع بالطابور، وربما دفعته نزوته إلى المكوث هنا ليلا مما يحول دون القيام بأي نشاط تمويني، أو قد يستكشف حركة ما فيخطر "الصاص" انتقاما؟!

" وماذا عن اغتياله تحت جنح الظلام؟!"

سؤال قفز بدون مقدمات من صدر الشيخ المكي مجددا تأمله، بل ماذا عليه لو يشعر رجال القسم بتحرشات الحركي على جناح السرعة لينصبوا له كمينا؟؛ ساعتها تحرق الخيم وتداس الصبايا تحت طائلة رد الفعل.

" ماذا لو أقحمتُ الحركي عبد الصابر في الأمر؟"

فعبد الصابر لم يسقط عليه الزي العسكري ولاءه للمحتشد وللثورة أيضا، حقا إنه أطلع " الصاص" على وجود أحد رجال الثورة بالدوار ذات ليلة، وكان سببا في استشهاده تحت أزيز السياط واقتطف ثمار فعلته تلك بحيث نال ترقية برتبة عريف، ولكن بوغريبة أفلح في استغلال علاقته المهجرية به. وعلى اطمئنانه الى ما وصل اليه تفكيره، بات السيناتور يعلك مشاريعه في اغترابية مملة.

وبالناحية الأخرى من الخيمة كانت حليمة تتناوم دون نوم، لم تعلق فاتنة المحتشد بما فيه الكفاية على أمر الحركي، بل إنها غالبا ما قاطعت زينب قبل استكمال الحديث:

" لسوف يعرف الدوار من هي حليمة، ذري الكل يتحدث بما يشاء يا زينب!"

" ماذا تعتزمين؟"

" أشياء غير قابلة إلا للكتمان"

صحيح أن مشهد الاعتداء المتوقع يفزعها بين حين ومثله، مخيلتها ترسمه في عناية موجعة، أثناء الطعام تظل متدحرجة بيدها وعيناها شاردتان والسهاد يركب هول الفاجعة، وصحيح أيضا انها تبدو مطمئنة دون أن تكشف عن سر قوة اطمئنانها؛ هل الحسنُ جناية إلى هذا الحد؟!نعم إنه توأم الموت!

وحياة المرأة الجميلة دائما تأبى أن تساير المألوف في الوجود، لذلك لابد لها من لحظة استثنائية تمنح جمالها أحقية التفرد عن حياة الأخريات! ولأن حليمة لم تعش في حياتها حدثا قد يخلّد حسنها، فهل ستموت بطريقة مغايرة لوفيات نساء المحتشد؟!من يتوقع هذا؟ من يفلسف حياتها بعيدا عنها غير الرومي؟

فمذ أن ماتت مريم بدون مقدمات ودون أسباب يعرفها، أدرك أن للجميلات موتا خاصا غالبا ما يتلفع بالكتمان، لذلك تكتم حليمة طريقة موتها.

" ستموت إذن؟!"

بالطبع مادامت جميلة؛ فالجميل لا تطيقه الحياة هكذا قرر الرومي في ثقة وتأكيد، سُلّم الأيام لم يتدن بحليمة إلا لأنه يخضع لهذه القاعدة، أين فتيان ملأوا صدرها بالأماني في تهجّداتها الوجدانية؟

هل ساقها القدر (أو الجمال) ليقرنها في خاتمة المطاف بحركي تحت صفة ما؟ إنها معرّة الأبد.

زوجات الحركى ذواتهن يحاولن التملص من دائرة الانتساب إلى أزواج يحملون هذه الصفة، الخالة بنت النمر تمنت لو تزف إلى علال ولد التارقي ذات يوم، وما أن حاول تحقيق أمنيتها اللاعجة حتى رفضت مشترطة فيه أن يُصبح "حرا"، الجبل هو مقياس الرجولة في الدوار كما يردد السيناتور؛ هو الموضة الشائعة اليوم.

أما إجادة الفروسية والرقص وو، فأمور لا تشد عاطفة المرأة ولا ينبض للاهتمام بها قلب رجل، وزينب هذه الفتاة المنعوتة بالسذاجة ألم تفصح عن رغبتها في لو يصير مراد (حرا)، لقد أصبح في نظرها أقل إثارة من شقيقها قدور.

" حليمة؟"

" نعم يا أبتاه"

" حذار من مغادرة الخيمة ليلا أو نهارا"

" هذا ما أعتزمه يا أبتاه"

إنه حظر من نوع أخر اضطر إليه الشيخ السيناتور.

سرحت عبر تلافيف محنتها، وسكون رهيب يعتصر المحتشد إلا من انعكاس الأضواء الاستكشافية المرسلة بين لحظة وأخرى من برج المراقبة؛ وفجأة صرخت ارتمت كلية على صدر والدها محدثة رجة، اختلطت لها أواني المطبخ بالزاوية الأخرى.

" حليمة حليمة ما بك؟!"

" شخص ما قذف سطح الخيمة بحجر ألم تسمع؟!"

استظهر "البوسعادي" من تحت المخدة التي كان ينام عليها، وفي رفق تطلع من خطوط السجاف الأمامي، سُمك الظلام يرسم أشباحا

بهلوانية التقاطع، وصدر حليمة يسمع خفقانه وهي تئن بين ذراعي والدتها التي أخذت تجس جبينها، وحاول الشيخ المكي مغادرة الخيمة فتشبثت بثوبه زوجه ضارعة:

" والحراسة؟!"

" ليست هناك حراسة إنه هو الخبيث"

لم يثنه إلحاح زوجه، اعتزم الخروج وحليمة تتوسل اليه باكية ألا يغامر بحياته، فالحركي يصطحب بندقيته ما في هذا شك وشتان بين فعلي البندقية والخنجر.

وزمجر:

" يغازل خيمتي بالحجارة رغم تأكده من وجودي؟!"

وانكفأت حليمة خجلا ورجفة حادة تمخر أطرافها، تمددت، تكومت، منتحبة كانت والظلام يعاملها كباقي قطع أثاث الخيمة.

الشيخ المكي بعينيه المشعتين يمتص منفذا في جدار القتامة الضاربة، يجتاحه شعور بالمغامرة بالموت. والموت سانحة الحركي سبيله لاقتحام حليمة، وبدورها أقلعت الزوجة في شهيق متقطع ممض.

" أي حظ ساق إلى مخدعنا هذه الفتاة التعسة؟!"

وتدر كلماتها هذه مزنا من الدموع تذرفه مآقي حليمة، بمعزل عن التشنجات التي ألف البكاء اصطحابها وتقاطع بكاءها:

" أفرُ إلى خيمة عمي بوخلوة؟"

" لتسهلي مهمة الحركي؟"

قال المكي في مضاضة معهودة، وقالت الوالدة وهي تجفف سواجمها بما فضل من خمارها:

" ولتعم الفضيحة؟"

وانقذف الحجر ثالثة على السطح ليلفى الشيخ المكي نفسه خارج الخيمة في حالة توثب قصوى، والخنجر مشدود بقبضته اليمنى في منتهى القوة؛ وهامسه شيء قريب منه لا يراه لغلالة الظلام الكثيف:

" نحرنا البعير الأبيض"

آليا انفرجت أصابعه عن قبضة الخنجر فسقط من يده، وعانقه الشبح الذي قال ضاحكا:

" ثلاث قذائف ولم تخرج أي نوم هذا؟"

" كنت متعبا فنمت يا جمال"

" قائد العرش لا ينام ليلا"

كادت حليمة أن تطلق زغرودة مدوية تشق جنح الليل الراكد، وقال جمال قبل أن يعتدل في جلوسه:

" حذار من إضرام النور. تمرا ولبنا، فقط فقط"

التروبادور. و (القصّاب) الألمانـــــــــي (14)

إنه من أفراد ستينيات القرن الماضي، أكل الموت جيله كاملا، وأبقاه شاهد عصر أخر، يلتقط أعاجيبه في غرابة لا تخلو من نكهة أحيانا.

عيناه اعتصرتا ارتواء الوجوه وذبولها في فضول، واستنكهت خفايا يوميات الناس، ومجاهيل سيرورتها المتوثبة نحو معالم الغد المجهول القسمات.

وعكس أن يزدهر فن العرافة في ظل الشدة التي ألمت بالدواوير كما توقع شيخ هذا الفن، اهتز الاعتقاد به، ولكم فكر العرّاف عجينة في الإقلاع عن تعاطي العرافة، فالأحداث تأخذ شكلا فجائيا لا يمهل على الاستقراء، ولكن الحرفة لا تفقد الانتساب اليها طواعية.

وليس في إمكان الشيخ عجينة أن يُبارى في طلاقة الحديث، ففي فيض هذيانه قلما يعثر السامع على شاردة تنتسب إلى العقل صراحة، إنه يلازم الفراش مذ زيارته إلى سجن القلعة محمولا على متن سيارة 6/6، حيث فقدت ضوابط عقله تميزها، كان يعتقد أن هرمه سيكف الأيدي التي تناوشته في ديوان " الصاص" بجريرة تعاطي الدجل وتسفيه الذهنيات، بذلك خاطبه ضابط شؤون الأهالي قبل أن يدعوه للاعتراف بمقولة يكررها، كدعاء ورد ملزم:

" لقد سقط الديوان، رحل السجّان"

" لفائدة من كل هذا النقيق؟! ثم تردد تباشير بقرب رحيلنا، أنت لا تستمد وحيك إلا من تعاليم عصابات الجبل"

" أدعو فقط إلى بصيص من رأفة"

وضحك الضابط معلقا:

" أعضو أنت في هيئة حقوق الإنسان؟"

مُكرها غادر الديوان وقد تخضبت لحيته المتشرذمة الشعر بأحمر قان ينهمر من منخريه، خطاه تترنح، وعلى عينيه الزائغتين غشاوة تتراقص، وكثبان المنحدر الرملي تشيعه في وقار خلف توثبات اختصاصية يرسمها كلب الضابط، ودون أن يفقه مغزى الكلمة التي شيعه بها، أيضا لم يحاول أن يفقه، ورغم أن خطاه كانت وئيدة فقد كاد أن يجتاز المنحدر لولا أن الكلب تمكن من نهش ساقه فطرحه أرضا، وتعهدت الزوبعة الرملية بإخفاء تفاصيل اللقاء، الشفتان تفتران عن زحمة في اللهاث ، العرق يتصبب وقد تعفّر وجهه بالتراب، وانقذفت عمامته الباهتة الزركشة منه بعيدا.

وضحك النقيب الذي كان حاضرا وقال:

" لعله من أنصار اتفاقيات جنيف؟!"

منتهى قواه أن تنغرز عيناه الصغيرتان في خياشيم الكلب التي استرقت حمرتها من دم العروب المتكهّل، حاول أن يستجمع شتات هندامه البائس، أن يستنهض قدميه وقد زايلتهما حرارة النبض:" هل مات أو هو بصدد الموت؟!" تساءل، غمغم، حرّك رأسه في اختلال؛ دقات صدره جد متباعدة يمخرها عياء:" هل مات؟!" في حسم ردد السؤال هذه المرة، وفي تلقائية مال رأسه نحو الأرض.

في حذر شديد يتحسس وجود الكلب، إلى أن اكتشف أنه انسحب، وعوض أن تدبّ في أوصاله حركة، أغمي عليه مرة أخرى، منظره أغرى الأطفال بالفضول، عائدين كانوا من نزهة الاستحمام ببحيرات الوادي الراكدة، ليس هناك من لم يلق بأمتعته ويتقدم في وجوم، دون أن يعلم أن بكومة الثياب المتسخة الملقاة، رجلا يعرفه عالم الأطفال "بالسحار"، ألم يكن له خادم من عالم الجان يستغور به منافذ الغيب؟!

إن انتسابه إلى طابور غير طابورهم، لم يحل دون تعرفهم عليه، فقد استحالت الطوابير ـ بحكم حياة المحتشد دوارا واحدا ـ "يحي" كان أجرأهم، بحيث دنا منه واثقا، وأخذ يمرر أصابع يده الدقيقة على جبينه المتغضن وقد علقت به الرمال:

" عمي عجينة عمي عجينة؟"

كان شبه يتثاءب وعيناه مغمضتان، وأوداجه وحدها تنزع نحو الحركية في وهن يتلاشى أحيانا.

" عمي عجينة؟"

" اخاله مات!"

لاحظ الطفل " عيسى" كما لو أنه يستعد للهرب، وانهمك الأطفال في ترتيب أمتعتهم، أكياس قماشية صغيرة الحجم معبأة بثمار التين والرومان والبلح، و"كرموس النصارى"(الصبار) وخضر صالحة للالتهام دون طهي، وقبل أن ينصرفوا عنه، أعادهم اليه سعاله المتقطع وأنينه الموجع.

"عمي عجينة تأكل الكرموس؟"

عيناه تعكسان شبح كلب فاتك، وأذناه تصيغان كلمات الطفل نباحا مستفزا، والصوت على تباين نبراته لا ينشد الا الفزع ؛ الجواد الطائري الشكل يخترق السماء، دون أن يُلقي التحية أو يلوّح بإشارة ما، الأعصاب تختلس التوازن لتفقده ثانية ، والطفل ينتظر جوابا قال بالانتفاء تماما كما انتظر " الصاص" قبله.

" إذهب وأخبر أحدا بما أنا عليه، إسرع"

في اتجاه الخيم انطلق الطفل عيسى يعدو، والريح تداعب أطراف عباءته الرمادية اللون، وخطا يحي خطوتين نحو العرّاف مناولا إياه ثمرة تين، استخدم في انتقائها كل عبقريته.

" شكرا لك"

وأضاف شبه هاذ:

" لكم هي لذيذة، لعلك سرقتها أيها اللص الصغير؟!"

" ألا تستطيع الاستواء في الجلوس يا عمي عجينة؟"

" لسوف أستطيع، ناولني فاكهة أخرى إذن"

وقلب يحي شفتيه استياء من الحاح العرّاف، وطلب إلى عبد الله أن يفعل هذه المرة، ولكن عبد الله احتج بأن ما معه ليس بناضج.

وقبل أن يمسك العرّاف فاكهة من بوداود بيده المرتجفة، عاوده الإغماء فاشتد على الأطفال منظره، ونبا عن إدراكهم أن عرقوبه لايزال يستجدي بقايا الدم في نزيف تتشربه الرمال صامتة.

"لكأني به قد مات ؟!"

" يموت ليحيا من جديد كما فعل قبل حين"

في غرابة:

" يحيا من جديد؟!"

" العرّاف لا يموت إطلاقا، إنه يتألم فقط"

فعلا لم يكن العرّاف عجينة تسلية للحياة فقط، فالموت هو الأخر أصبح يجد في مداعبته إياه متعة.

" إنه يحتضر!"

قال الشيخ معلى قبل أن يلحق به.

" ساعدني على نقله يا شيخ"

أجاب الشيخ بوخلوة وكأن الأمر لا يتسع لنقاش.

" لنمر به على ممرضية القرية، فساقه قد لفظت دماءها فيما يبدو"

وتلقّى العرّاف عجينة إسعافا أوليا، حقنة مضادة ومرهما وأقراصا حيوية للاستعمال الليلي، ولم يشد عيون الأطفال إلا عصابة بيضاء أحكم الطبيب لفّها على رجل العرّاف، مما حال دون انتعاله حذاءه المعفّر الجلد.

انصرف به الشيخان ليلزم فراشه عملا بنصيحة السيد " ريمون" طبيب القرية والمحتشد؛ كان بالقياس إلى الآخرين إنسانيا، كما وصفه العرّاف في مجلس الشيخ بوخلوة الآن.

كانت تفاصيل ملمته تسترجع نفسها في خلده، وعيناه الزائغتان تتقلبان بين وجوه معيديه من مشيخة الدوار، إدراكه لا يتلقف من أحاديثهم الا طنينها، ولو أن الضيافة تتدفق من خارج الكوخ، والكوخ ذاته أقيم نتيجة جهود مخلصة تصون حقوق الجار.

ليس للعراف أي سند أسري، ولم يسبق له قط أن بكى هذه الوحدة أو ضاق بها، فمخاطبة الرمل تقتضي بدورها الاعتزال؛ لأول مرة تنطق عيناه بدون بشر:

" أُهِنتُ يا شيخ بوخلوة على كبر سني!"

كانت كلمته بكائية إلى أبعد حد تنشد أعلى مراقي الإشفاق، والإشفاق جراح أثخنت نفسية المحتشد فاستنفذت احتياطيها.

وتنهد السيناتور في حنق ممتنعا عن التعليق، إذ ماذا يُقال حين تتجاوز المآسي حجم الإشفاق ذاته؟، بل لولا الواجب الذي اقتضى وجوده هنا ما كان ليجمعه بالشيخ معلى مجلس، بعد الذي حدث بينهما. وقال الشيخ بوخلوة:

" كان عليك أن تعتزل الشبهات من القيل يا شيخ عجينة"

وقال مبارك:

" إنه لا يقول إلا بقدر ما يُقال له! إنه الرمل "

وتحرك عجينة كأنه يلتمس دفئا في كلمات الشيخ، بل هز رأسه أن صدقت. واستجمع قواه الصوتية في تساؤل محظور:

" ولكن أيكم جمال؟"

" التحق بالجبل منذ سنين يا شيخ"

وضحك في وهن دون أن يمد بصره نحو الذي أجاب:

" إذن لقد اقترب"

وحملق الشيوخ كما لو أنهم يستزيدونه، سوى أن العرّاف انتقل إلى الهذيان:

" تنهار القلعة، ونباشرُ المرعى"

وسأله الشيخ مبارك:

" أيان ذلك؟"

" بذا نطقت القرعة "

وصاح الشيخ بخلوة:

" هي ذي تعلات إدانته!!"

وانفجر الشيخ المكي في غضب بركاني معهود:

" أنحاسَب على الجنون ؟! أوليس من حقنا أن نُجن ونهذي أيضا؟!!"

ولم يضف الشيخ بوخلوة إلى قوله:

" إنني لأخشى عليك أنت الأخر صدّقني"

وقد استعاد السيناتور توازنه:

" أعرف هذا منك يا شيخ بوخلوة "

ولأمر ما تذكّر بوشريط، كان لاستشهاد الرجل/ الفحل، كما يسميه أليم الوقع على نفسيته، كلماته لما تفقد بعد لون نبراتها في خلده، ذاكرته تؤوب إلى لقاء الخيمة، حيث اكتشف أولى إبهامات الدهشة ومنحى مخاضها، وارتسم على الفور مشهد " السياسي"، فالثورة كالأسرة لا تنمحي كينونتها دفعة واحدة.

عاد الشيوخ إلى مصلاهم قبل المغيب، والسيناتور يتوقع بحاسته رحيل عطاء الله إذا جن الليل، وفي ظل حظر التجول المستديم افتقد الدوار حلقاته الليلية المنظمة، فالحظر قد شمل جماعية صلاة العشاء بحكم زمانها المتأخر، ولأنها كانت تُصلى على العراء، وأسكت قصبة الرومي إلا في حدود معينة، وأدخل على الحياة عامل الانفراد المبكر لأول مرة.

والشيخ بوخلوة كأي كبير دوار أخر، يعتلك همومه منفردا؛ سابقة خطيرة سجلها اجتماع " ضابط شؤون الأهالي" بالأعيان، ولو أنه يبدو في مظهر المجبر عليها، لقد طلب إلى قائد كل طابور أن يختار خمس جميلات لاكتفاء حاجة الجيش.

وتبادل الشيوخ نظرات حيرى يجللها مزيج من الحنق والإشفاق على ما بلغه الأمر، وارتأى قائد طابور القرية نفسه مضطرا للاحتجاج في ليونة:

" أنت رجل سياسي مهمتك التصرف في الجو العام، والحفاظ على استقراره ولا اخال ما تدعو اليه صالحا لاستمرار هذا الاستقرار، أنت تلح في المطالبة بأخطر شيء قد يدفع حتى الحياديين إلى النقمة"

" والجيش؟! وموقفي أمام قائد الحامية بالمدينة؟"

وقال الشيخ بوخلوة:

" هناك نساء الحركى، فهؤلاء جزء من هذا الجيش"

وقطّب الضابط وهو يلفّ بوخلوة بنظرة تنم عن أنه لم يتوقع منه ذلك إطلاقا، وقال قائد طابور القرية:

" بل مومسات المدينة، يُؤتى بهن إلى الجيش؟"

وأطرق الضابط مليا والجميع ينتظر جوابه:

" اقتراح يُنظر فيه ولكن ثقوا أنه في حال الرفض، سنضطر إلى تنفيذ ما صارحتكم به"

واشتط مغادرا مقعده:

" ولكن لو طلب ما يسمى بـ (جيش التحرير)، مثل هذا لمنحه كل طابور عشرين فتاة؟!"

وانصرف غاضبا، لأول مرة يلعن الشيخ بوخلوة أمر الكوراطة و القيادة، آووه، لو صارح جمع المصلى بطلب " الضابطّ "، إذن لأقيم عليه حد غير مقرر؛ ثم بنات من هؤلاء اللائي قد يقضين ليلة بالثكنة، دون أن تسقط عنهن صفة الانتساب إلى الدوار؟!

ومن يومها أصبح بوخلوة يخاف اجتماعات الديوان، بل إن ولاءه لهذه الثكنة قد اهتز بصورة محسوسة، ولكم كان أمره فجائيا حين اختلى بالشيخ المكي، طالبا اليه تسجيل اسمه ضمن أحد فروع العرش، ملحا على إخفاء الأمر عن الشيخ معلى، وحين أنكر الشيخ المكي وجود فروع، أو عرش كالتي يتحدث عنها بوخلوة قهقه هذا:

" أتراني عشت نازحا عن الدوار؟ كل ما في الأمر أنّي ظننت نفسي غير معني بأمركم ولعله خطأ؟!"

وسكت الشيخ المكي كما لو أنه يرجئ البت في قضية معلقة، وعدل بوخلوة عن الكلام حتى يمهل زميله فرصة للتفكير أو اتخاذ ما يراه مناسبا.

وظل الشيخ بوخلوة يعتقد أن الفاجعة لم تتسرب إلى خارج صدور أنداده من قواد الطوابير؛ والواقع أن القسم قد أُبلغ بأمرها توا، فقائد الطابور الثامن مخضرم الصفة، بحيث أنه في ذات الحين قائد عرش، وهذا الإنذار المبكر جعل بقية قواد العروش بمن فيهم السيناتور، يتلقون من القسم توبيخا شديد اللهجة ناعيا عليهم انحطاط حاسة اليقظة، قبل أن يدعوهم إلى تعبئة الطوابير وتأجيج تأهبها لقمع أية محاولة.

وتجلت أعراض هذه المقاومة النفسية في وقائيات طرأت على واقع الدواوير؛ فتضاءل عدد الفتيات بابتدائية القرية، ودبّ في الخيم إجماع نسائي على مقاطعة الممرّضية، وشحت حركات النساء عبر أزقة القرية الضيقة، وأغلقت زوجة الضابط مركز النسيج لأن المتربصات امتنعن عن الحضور، وعجعج الأطفال خلف كل عسكري يفضل الطواف بالمحتشد منفردا، دون أن يستثنوا الحركي العاشق من هذه المناوآت.

وزار النقيب ديوان شؤون الأهالي مرتين في يوم واحد، حاملا إلى الضابط تذمر الجيش.

" يا حضرة النقيب إذا كان مجرد ترويج الخبر قد أثار ما ترى فكيف به إذا تحقق؟!"

" نصف نساء المحتشد من الأرامل ممن يتصدى لنا أزواجهم بالجبال، إنه انتقام من نوع أخر ولو أملته ظروف معينة، نحن لا نطالب بعذارى أو بزوجات محترمات"

وأشعل لفافة دون أن يجلس وأضاف:

" تصوّر معي نفسية ذلك " الفلاّقي"(15) الذي يبلغه، أن زوجته قد قضت ليلة بالثكنة مع اللفيف الأجنبي(16) تصور!"

وقهقه وهو ينفض سيجارته:

" تصوّر. ألا تراه معي وقد قذف ببندقيته في وجه رؤسائه، أو صوّبها نحو صدورهم نقمة؟"

وقال الضابط:

" ولكن أيهما أخطر أن يقذف بضعة رجال ببنادقهم، أم أن ترتجّ قرية بكاملها؟"

وقال النقيب في استرخاء وكانت بذلة الصاعقة قد منحت قوامه جاذبية:

" أنتم السياسيون شأنكم شأن الشعراء، تخافون اللغط والضجيج، أما نحن فلا نينع الا داخل الضوضاء كهدير الأسلحة تماما يا صديقي؟"

وأبلغه الضابط اقتراح قائد طابور القرية، فقلب شفتيه في تساؤل:

" مومسات المدينة أقل من اكتفاء حاجة الحامية هناك!"

" ولكن في المدينة الوضع يختلف"

" حسنا سنعرض الاقتراح على قائد الحامية وقد نلجأ اليه كحل جزئي"

وأكد ضابط شؤون الأهالي:

" اشفعه بصورة تحليلية عن ذهنية القُرى، لا تنس أن دينهم يجعل من ذلك مدعاة كافية للاستشهاد"

وضحك النقيب:

" الاستشهاد عندهم مقرون بكل شيء!، لا ينسوا فقط أن المومسات اللائي سيؤتى بهن هن بناتهم أيضا؟!!"

" الوضع يختلف"

الهجوم على المحتشد أكيد التوقع، الضابط ذاته لا يستبعد أن يركب النقيب رأسه، أو يتخاذل أمام تحديات ضباطه؛ الحراسة الليلية عرفت تطورا لم يشهد له المحتشد مثيلا، والشبهة تلاحق وجوها يلتقطها الحركى بين حين وأخر، في جملة أسرى هذه الصبيحة كان الشيخ الفُضيل؛ وأعربت طلقات نارية عن أقصى غضبتها، وتلملم الشيخ المكي في فراشه ونهض نحو السجاف يتطلع، وتأوهت حليمة بعيدا منه وقد أيقظ الرومي يعقوب وبوغريبة الذي قال:

" ماذا هناك؟!"

" طلقات نارية بشرقي المحتشد"

" لستُ أدري كيف ابتلينا بهذا اللفيف (نص/نص)؟"

وأكد:

"أي تحد نواجهه؟"

وأفزعهم هدير سيارة تخترق سكون المحتشد إلى أن توقفت بخيمة الشيخ بوخلوة، ودُعي لامتطائها والليل قد استهلك ما يفوق نصفه، صياح ومحركات وقرقعة أسلحة، وأمام الديوان شيوخ يمخر عيونهم الكلل بعيدا عن عالم التهجد، واقترب بوخلوة من قائد طابور القرية:

" ماذا يريدون أيضا؟"

" لا ندري إلا أننا دُعينا في مثل هذا الوقت كما ترى"

وزفر الشيخ بوخلوة:

" ألم نفرغ من ملف المغازلة العلنية بعد؟!"

قضى أكابر الدوار ليلتهم تلك قريبا من أعتاب ديوان شؤون الأهالي، ومع الضحى برز" الضابط" في منامته يحذوه حركيان واتكأ على إحدى دفتي الوصيد الزجاجي:

" هل لحظتم نقمة الجيش؟ إننا نتعامل معكم كشيوخ دوار وليس كمتمردين وإلا كان لنا معكم موقف أخر"

" ولكن بين صفوفكم جواسيس، همهم فقط أن يلمّ الجبل بكل تحرك يصدر عنا"

وأضاف:

" أيها السادة الأجلاء، إن محصّلات اجتماعاتنا أصبحت تعلن على أوسع نطاق، وهي لا تفتأ خاما قابلا للاعتماد أو الإلغاء، بل إنها محل تحد وهي لاتزال خواطر تجيش بها نفوسنا!"

وسكت مطيلا:

" لقد أضحت قريتكم تشكو ندرى المرأة، مذ أن تناولنا قضية بسيطة اعتبرتموها من أخطر ما تدارسنا"

واحتج الشيخ بوخلوة موجها كلامه إلى المترجم:

"أبلغه أنها فعلا أخطر ما تدارسنا، وإنّا لمنا من يضع الاستقالة من تحقيقها أقرب"

ولفّه الضابط بنظرة فاحصة:

" تهددنا بالاستقالة يا شيخ "بوكلوة"، ظننتك أخر من يفعل، ولكن لعلمك أن قبول الاستقالة في عرفنا يعني الإعدام"

وتمتم الشيخ بوخلوة:" فلنعدم قبل أن يسجل الدوار في حياتنا هذه المهانة"

وأومأ اليه الحركي المترجم أن يسكت، وعاود الضابط إصراره:

" ثقوا أنها معيار ولائكم"

انصرف الضابط وقد أحس أن المسالة ليست من البساطة بحيث كان يتوقع، فإقدام واحد كالشيخ بوخلوة على الاستقالة يعطيها حجمها الحقيقي.

وبالمصلى العام التحق الشيخ بوخلوة يسير كالمصاب بقذيفة، فأبلغ رجالات الطابور جلية ما حدث، وأثنى الشيخ المكي على موقفه قائلا:

" إنهم بتماديهم لن يتركوا إلى جانبهم أحدا من الشرفاء"

وعارض الشيخ معلى:

" من الحكمة أن نتجنب مواجهة غير متكافئة"

وقرقع الشيخ المكي بسعال حاد:

" وهذه الثورة أليست في ذاتها مواجهة غير متكافئة؟!"

" وهو ما يجعل منها محاولة خاسرة حتما"

" اقتد زوجك وبناتك إلى الثكنة إذن"

" بل وزوجات وبنات الأخرين، أم أنهن يفضلن اقتياد الثكنة إليهن؟"

أدرك الشيخ المكي ما يرمي إليه الشيخ معلى فقام واثبا، وزايل الشيخ بوخلوة اعتزاله، وأمسك بالسيناتور يهدّئ من غضبه، فاختتم هذا ثورته:

" الخونة"

وهدد الشيخ معلى في حنق:

" لسوف نحتكم إلى ضابط شؤون الأهالي"

وتدخل بوخلوة مشتطا:

" إلا هذه، لسوف تحتكمان الي"

واحتد الشيخ معلى:

" أنت تخاف كل شيء، الضابط، القسم، كل شيء، تتصنع اللعب على أكثر من حبل يا بوخلوة "

" أمثلي يواجه بهذا يا شيخ معلى؟!"

وانصرف دون أن يجيب، معتلكا مجموعة من المواقف تدعوه المناسبة لتبنيها، وأعيدت حلقة الشيوخ إلى سابق صورها لولا أن السيناتور أضرب عن الكلام هذه المرة صادقا، وقال الشيخ عطاء الله موجها كلامه اليه:

" كان عليك ألا تمعن في إهانته"

" إنه مهان بطبعه وإلا ما ابدى حماسه لقضية يموت دونها أبسط رعاتنا"

اعتزل معلى مجالس الطابور ونزع عن لقاءات حميمه بوخلوة ، فاستهلك ساعات نهاره بدكان حداد القرية " صالح"، حيث يجتمع إلى الحركي العاشق، وأحايين ليله بخيمته ولكنها عزلة موظفة سرعان ما تنقضي بإبادة المناوئين، وبلوغ سدة الكوراطية التي عجز عنها غبي يتعاطى الإباء كالشيخ بوخلوة.

صحيح أنه ليس بمستعد لتلبية رغبات الضابط دفعة واحدة، ومنها المتعلقة "بالحسناوات الخمس"، ولكن في وسعه أن يتنازل إلى أكثر من الحد الذي أظهر فيه بوخلوة تصلبا فظا، فشيخ الدوار أوفر تحملا لترغيب شباب الطابور في الانضمام إلى سلك الحركى مثلا، يحفزهم التبطل والفراغ القاتل، وبإمكانه أن يبلغ " الصاص" بتحركات لا تخدم أمن الطابور، بل إنه قادر على أن يستصدر أمرا بالسفر إلى المدينة، لهذا أو ذاك مقابل خدمات يحسن استغلال نتائجها.

ويبدو أن الضابط سوف يتلمس فيه رجل المرحلة، فالشبهة عدوة الوضوح، من الصعب ـ كما يرى ـ أن يقيم علاقة مباشرة مع الديوان حاليا على الأقل، ذلك لأنه سمح لنفسه أن يظل مغمورا خلف الشيخ بوخلوة، وعليه أن يُؤدي ضريبة الجناية التي ارتكبها في حق الذات، بالخضوع إلى واسطة يمثل جسرها الحركي العاشق أو " زوجة الضابط"، أو"الماصّو" (البَنّاء) الذي اغتال القسم أباه ذات مرة.

ومع المغيب زاره الماصّو في خيمته، وطمع الشيخ المكي في إدراك مغزى الزيارة بدون طائل.

الماصّو! ألم يكن يستطلع الميدان على الطبيعة؟ هذا السؤال في الواقع لم يتبادر إلى ذهن أحد، حتى أولئك الذين اعتادوا تحليل الطوارئ الوافدة على الطابور.

وأيقن السيناتور أن الشيخ معلى لم يعد ذلك الذيل المطواع، واستقرأ في تحركاته الجديدة ما يبعث على التفكير في إخطار القسم، لو لم يعزه وضوح الإدانة، والتمس الشيخ بوخلوة تغاضي الضابط عن دعوته إلى اجتماعات الأعيان، مذ شافهه بالاستقالة.

وحضر الشيخ معلى ـ بدون مقدمات كافية ـ حفل زفاف ابن بوتفاحة من الهلالية، دون أن يتعلل بالصداع كما توقع الجميع، وبعيدا عن طلقات البارود المألوفة، وفكاهات بوغريبة، غنّت " بنت النمر" أغنية تشيد بالسياسي. وعلق الشيخ معلى في سره:" هذه الفاجرة ألا تنتسب إلى واحد يحجم صوتها؟!"

وعلى أن اللحن التمس قوة الإمتاع في اصطحاب رقص نسائي خفيف، تنتظمه تواقيع دف متلاحقة كأنفاس محمومة، سارع الشيخ المكي إلى الاحتجاج على لسان زوجه تخوفا، وارتأت بنت النمر نفسها مدفوعة إلى لحن أخر أقرب إلى التثاقل، وسرت في الوسط النسائي وشوشة:

" ممنـــــــــــــــوع؟!"

" ممنوع!!!!!!"

" الغناء صار ممنوعا؟!"

ورافعت بنت النمر في لهجة شديدة:

" الضابط منح رخصة لإقامة الزفاف"

وأكدت مسعودة ما أوصاها به الشيخ المكي:

" اسم السياسي هو الممنوع"

وعلّقت رقية زوج الشيخ معلى حانفة:

"وين نعرفو السياسي هذا؟ غنّوا على أولاد الدوار"

واحتدت بنت النمر:

" لن أغني إلا بأسماء ثلاثة: بوشريط، موسطاش والسياسي والباقي من اختصاصكن"

معظم نساء الطابور لم يلجن في جدل، فهن حضرن الحفل من باب اللياقة لا أكثر، إذ ما ذنب الهلالية إن تزامن زفافها مع وقائع لا تبعث على الانتشاء؟! وتحلقت سمات تذمّر على محيا بنت النمر فقذفت بالدف بعيدا.

" ماذا دهاك؟"

تساءلت العجوز زهرة.

" أي عرس هذا الذي يقام بعيدا عن الزرنة، والبارود وشخير الجياد؟"

" لم يعد في الساحة يا حبيبتي إلا أحصنة الحركى وبنادقهم"

أجابت أم العروس مسرعة، فكادت بنت النمر تقول:

" وعشيقاتهم"

لولا أنها تفطنت إلى حليمة تجلس إلى جانبها، يلفّها صمت ثقيل، فاستبدلت كلمتها على الفور بقولها:

" بل أي عرس هذا الذي لا يتمايل فيه خصر حليمة؟! أقسم أن ترقصي يا ابنة الشيخ المكي وعلى تواقيع دفي أيضا"

وابتسمت حليمة غير صادقة وقالت هامسة:

" إنني مريضة يا خالة"

وقهقهت بنت النمر:

" خالة؟!!!هل شختُ إلى هذه الدرجة؟

وارتج الجمع النسائي بضحكات متباينة النبرات، وحاصرت الأعين حليمة مترجية:

" لقد أقسمت عليك"

" صحيح أننا نسينا ترنحها الأخّاذ"

" ما أبدع الرشاقة تتلوّى تحت وقع الدفوف الصاخبة"

وقفزت الواشمة من مكانها، فجذبت حليمة من ذراعها إلى حلقة الرقص:

" كلنا يدعوك إلى الرقص كلنا"

وقفزت زينب من زاوية مقابلة:

" لنرقص سويا"

وعلقت بنت النمر ساخرة:

" إنه عرس ابنة خالتك من الرضاع، آه نسيتْ "

وضحك الجميع واستلمت حليمة من بنت النمر شالها المزركش لتتمنطق به؛ حليمة الآن في حالة رقص فعلا وبكامل حضورها،

توهج خداها وزايل التجديل بعض ضفائرها، فاكتسح الاهتزاز قواما أظهرت خيمة بوتفاحة عجزها شبه الكلي عن احتواء اندفاعاته وتدفق حيويته، واستقرت الأرداف في هدنات متقطعة كحرب استنزاف مفتوحة، وارتجف الخصر في اهتزازات آلية شبيهة بما يطرأ على مؤشر الرادار تستفزه المباغتة، سابقت الأطراف الزئبقية تأوهات الدف، واستشعرت زينب ثقلا في جانبها فسايرت الخفة على مضض. ورغم أنها لا تمثل دور أي أستاذ في حياة حليمة فاخرت بنت النمر:

" الجميل يُحسن كل شيء، كل شيء تلقائيا"

" ولكنك جميلة ومع ذلك لا تحذقين الا رقصة الصف؟"

" والغناء والدف و"

" وماذا؟ هل عدنا إلى أحاديث الأرامل؟!"

وشرقت بضحكتها لكلمة الخالة مسعودة، لن تستفزها أبدا صفة الأرملة فهي أرملة موسطاش، وموسطاش ميّت أفضل في نظرها من أحياء تعرفهم جيدا.

والعيون مشدودة إلى قوام حليمة إنما لتسرق اللحظة، مدركة انها فقط أومضت لتختفي دون أن تُنبش بالتقادم.

وتشاكس الأطفال خارج الخيمة فيما إذا كان بوسنة يحمل زرناه أم حضر الحفل أعزل؟ وصاحوا مسرعين:

" الغيّاط"

" الغيّاط"

والحق أن بوسنة بدوره اتهم بعزف ألحان مشبوهة سيما لحن (كي طال الحال) الذي تعرض للاستنطاق بشأنه.

" فأي حال هاته التي طالت؟"

كما واجهه ضابط الصف ذو طاقم الاسنان الذهبية، بل وإذا كان المديح لا يخدم الحياد، فما بالك بالعزف يتناول حالات تطاولت؟!!"

وتلقى عازف القرية إنذارا سارع بعده إلى تحطيم زرناه لكيلا تركب رأسها، فتتجاوز به الخط الأحمر في لحظة إبحار غير مأذونة.

أما الجديد في زفاف الهلالية الذي أحسه الدوار؛ فهو أنغام الرومي الليلية التي سمح لها أن تتوثب قريبا من الطابور، ولئن كانت الأنغام في ذاتها شيئا مستجدا لم يتسمّعه الدوار مذ أن تطوبر وألحق بالقرية، فغرابة الرومي في هذه الليلة لم تتوقف لدى هذا الحد، بل إن ما ينساب إلى أسماع الناس، وتتشربه آذانهم الصدئة بالأحزان، هو فعلا لحن" حيزية" الذي أضرب الرومي عن عزفه منذ ما ينوف عن العقد من السنين.

هل كان يحب الهلالية بطريقته التكتمية الخاصة؟!

هل تفطن إلى أن مرثاة "حيزية"، تربطه بعالم "مريم" أكثر مما تبعده عنه؟

لم تكن حليمة وحدها تعقد لسانها الدهشة، فزينب بجانبها و، و، كلهن يربطهن انشداه لا تكفي الألسن وحدها للإعراب عنه.

" حيزية" ذلك اللحن المحظور الذي دفع بالرومي إلى محاولة لطم خد حليمة، يوم أن جاءت لجلب الماء من عين الخروب، لمجرد انها تضرعت اليه لكي يعزفه، يتهادى اليوم مع الظلام عبر الخيم الساكنة مجانا وبدون طلب؟!

ومنه دنا بوغريبة وكأنه ينوب عن الدوار في استفهامه:

" تتحلل من نذرك بدون مقابل؟!"

وضحك يعقوب في استعجال:

" نذر مريم يا الرومي؟!!!"

استمر في العزف دون أن ينثني، مخيلته ترسم ضيعة أو قصرا أو " دالية كولون"، **وذلك هو قوام بيئة سبق له أن عرف فيها مريم أيام رحلة التل رحلة " كراء الحصائد"، فهام بجمالها وبرقصها، وهامت هي بزرقة عينيه وبألحانه، قبل أن يُقال له في موسم أخر، أن الموت قد اختطفها،**

إنه يستشف مشهدا أبدع في تصويره الشيخ "ابن قيطون"، الذي انتظم واقعة " حيزية" في بكائية ممضّة، تقضّت مصايف الشمال والتمس موكب "حيزية" ـ تماما كموكب خيرة البوذنيبية ولو بخلاف يسير ــ طريقه تلقاء الجنوب، يتوسطه هودجها المحلّى، بعيرها يلتفت يتحسس إيقاع حوافر الجواد المتمايل تحت قامة " سعيّد"، الذي أرخى العنان يغمره شذا الاقتراب منها، فأسكن الدفء نوازعها لولا غيبوبة المنام المخيف.

وسئم يعقوب انتظار الجواب، فغنّى مقاطع يحذقها بتصرف.

اللحن لا يستجمع ملامح " مريم" كما اعتاد أن يفعل بالرومي، و الرومي يدرك هذا المستجد الذي أعفاه من تحديق وثني في تعاريج الطيف، إنه ومذ فترة يعامل اللحن من الخارج فحسب، لا يجتافه بل يناغيه بتجرد بداعي الحياد.

ومريم؟! لماذا لا يفلسف الموت الا حين يتعلق بها؟ ولماذا نذر احتجاجا على موت كان في وسعه أن يدعو بوشريط ذاته؟ بل قد يدعوه هو الأخر؟

" لعبة غير متكافئة"

قطع اللحن وعلّق:

" ما هي؟"

" لا شيء لا شيء"

وواصل العزف مقدرا ألا ينام، لولا قرقعة سلاح ببوابة الحظيرة، وتحرك يعقوب في مجلسه البعيد:

" العسكر!"

كل ما كان يبدو من محدثهم هو خوذته الفولاذية، ونصف رشاشه المصوب في تحد:

" من يوجد بهذا الخندق؟"

" رعاة الطابور 21"

أجاب بوغريبة في حين لم يستوعب زميلاه صيغة السؤال الداهم، وخفّ الصوت عن حدّته نوعا ما:

" رعاة أم فنانون؟!"

" بل رعاة وكل ما في الأمر أن بوتفاحة"

وقاطعه الصوت:

" اخرس ناولني بطاقاتكم، أرني هذا الناي الذي أخلّ بحظر التجول"

وأسلم الرومي قصبته إلى بوغريبة دون أن ينبس، نظرة شبه مستعجلة القاها العسكري على البطاقات الثلاث، وتراخيص الرعي وقذف بالكل في غير نظام إلى بوغريبة، وفحص القصبة وأعادها إلى بوغريبة طالبا اليه أن يعزف فقال:

" بل زميلي هو العازف"

" فليسمعنا"

وتحفظ الرومي في البدء فدفعه بوغريبة:

"اعزف أو أفرغ في سحنتك جوف رشاشه"

وقاطعه العسكري ثانية:

" فيم تهامسه؟"

" طلبت اليه أن يعزف لكم لحن (أمّنا فرنسا)"

" ومن وضع لحن هذا النشيد؟"

" والده الذي مات على أبواب "الألزاس " دفاعا عن فرنسا"

" وتعرف الألزاس أيضا؟"

" شهرتها طبقت الأفاق يا سيدي"

وأضاف هامسا:

" اعزف حيزية، غنّ يا يعقوب"

سارع العسكري بإطفاء مصباحه اليدوي بعد أن تأكد من محتويات الحظيرة، ولاحظ الرومي أثناء العزف شأن صاحبيه تكاثر الرؤوس المتزاحمة، للاطلاع عليه خلف البوابة فندم على قراره بالشروع في العزف؛ مريم وفية وتنبذ الخداع، وتطيّر بعرس الهلالية هذه اللعوب التي كان في امكانها أن تتزوج قبل الاحتشاد، وكان بوغريبة لا يقل قلقا عنه عكس يعقوب الذي يعكس صوته ثباتا، ويعقوب حين لا تحتوي ملابسه مظروفا من الناحية أو القسم أو من الشيخ المكي، أو عطاء الله يصير أكثر رجالات الدوار رباطة جأش، لا يتزعزع.

أبلغ بوغريبة الرومي تشكرات العسكريين، وقد التقط كلمتين قذف بهما أحدهم استعصت عنه الأولى:

" تروبادور، هنود حمر"

وفور أن انصرفوا قال الرومي:

" العسكر يتفهمون القصبة خير من الحرْكى"

وقهقه رفيقاه كما لو أنهما يزفان إلى بعضهما تهنئة بالسلامة.

القصبة !. ليست كما ظل الرومي ينظر اليها، إنها نقيض الموت وسيلة حياة، فلولاها لأشبعهم العسكريون لكما ورفسا، ولكنها القصبة! الكل يهرب اليها من ظروفه، لقد ظلت شعار صلته بمريم وذي هي اليوم عنوان تفاهمه مع العسكريين، الذين لا يتلقونها إلا كذبذبات الرطانة.

" الحرْكى وحدهم يسخرون منها"

" وهم على جهل تام بالموسيقا الفرنسية"

أجاب بوغريبة وأضاف:

" ومع ذلك قد يدّعون أنهم يحسنون الاستماع إلى(بيتهوفن)!"

" ومن هو يا بوعلام؟"

" (قصّاب) ألماني!"

وأدرك الرومي نبرات ساخرة تمازج حديث بوغريبة فقال في مسكنة:

" تضحك مني لأنك زرت فرنسا؟! (كلكم سلعة واحدة)"

" قصّب قصّب "

وفك الرومي عقال اللحن فأوغل، وحاصر يعقوب ثغاء نعجة أدرك أنها في حالة مخاض فسارع إلى الزريبة، ودمدمت رصاصة

مجهولة الاتجاه فأرغمته على العودة لاهثا، ودون أن يُعنى بأمر يعقوب وجه الرومي سؤاله إلى بوغريبة:

" لقد تحدّثت مع العسكري مطولا، دون أن تكاشفنا بما دار بينكما"

وأبلغه بوغريبة أنه حاوره في النشيد الذي وضعه والده، فقال بغرابة صادقة:

" وكيف افتعلت هذا ببداهة حاضرة؟!"

" وفيم عساي أحادثه غير أن أفتعل أشياء تشده؟"

" أنت داهية"

كانت أنفاس يعقوب تقاطع الهدوء المحدق بالحظيرة، وقد أخذ مكانه ناعيا على صاحبيه برودة أعصابهما أمام هدير الرصاص.

" رصاصة بعيدة جدا "

" أحسست وكأنها سقطت بين نعلي"

" وما الذي أخرجك في مثل هذا الوقت؟"

ساقت أمسية اليوم الموالي عكس صبيحته حشدا من الملمّات التي تطفف الدوار مذاقها راغما؛ فيعقوب آب إلى الشيخ المكي بمظروف نبأ استشهاد الناصر، وما أن افتضه الشيخ عطاء الله حتى لحق السيناتور بيعقوب صائحا في وجهه:

" أصبحت لا تحمل إلا بيانات النعي!!!"

وأزعج تطيّره حلقة الرعاة، بل أن يعقوب طلب إعفاءه من وظيفة البريد المشئومة، إلا أن قائد العرش ما عتم أن قدّم اعتذاره بعد أن زايله إحساس المفاجأة:

" صدّقني لقد كان زميل صبا وشريك قضية "

" وهل تخالني لا أجلّه؟!"

وبكى الدوار موسطاش الثاني بغزارة، جعلت الخالة زهرة لا تنفرد بالحزن وحدها، وعلّق الشيخ بوخلوة صراحة:

" فاقت ملحمة استشهاده واقعة الحدود"

وضاعف من مرارة الحدث أن الشيخ معلى، شوهد يصطحب الحركي العاشق إلى متجر الحداد أياما متلاحقة.

" لعلها تبادلك؟!"

" أقسم"

" العُهر توأم الحُسن لا تنس هذا"

" صدقت ولكن ما السبيل اليها؟"

وتأخر بالجواب ساهما بنظره إلى السقف الخشبي للمتجر، محدقا في عنكبوت كانت تنسج خيوطها في تؤدة وإتقان.

" إنني أسألك؟"

" أخطبها من والدها مباشرة"

وشدّد على مخارج الحروف:

" لن يقرنها بحركي ولكن سيأتي دوره"

ولمعت عيناه في خبث:

" ماذا تعني؟"

" لا شيء لا شيء"

واطمأن الشيخ معلى إلى الثقة التي تنامت بينه وبين الحركي العاشق، فسأله صادقا:

" هل للضابط عين بطابورنا؟"

وأجفله السؤال وهو يعقد عينيه في غرابة:

" وما الداعي إلى سؤال كهذا؟"

وضحك الشيخ معلى ليزيل اللبس أكثر:

" فقط أريد أن أعرف مدى حظوتك عند الضابط"

" آه، فهمت يمكنك الاعتماد علّي"

" وإذن؟!"

جاءهما الحدّاد صالح بكأسين من الشاي وانصرف إلى غرفة داخلية، حيث يصارع الكير والمطرقة، كان الرجل يدلك يديه المخشوشنتين في اعتياد ممل، وتشاغل الحركي بنفض حذائه العسكري من بقايا وحل عالقة، إلى غاية أن توارى العم " صالح":

" في طابوركم؟ لا أعتقد"

وضحك الشيخ معلى معلقا:

" كلهم جبليون!!"

وبادره الحركي:

"والماصّو؟"

" ناقم لأبيه في صمت"

" ومع ذلك يسوّف في كل شيء"

" لكأني به يُشحن مفجّرا مهولا"

" لا أعتقد، إنه جبان"

وسأله الحركي:

" أراك تُعنى منذ اليوم بأمور لم تكن لتسترعي انتباهك؟"

وتنهد:

" صحيح. كان علينا أن نتعاون"

" تقصد ماذا؟"

" أقصد أن أساعدك في الزواج من الحسناء"

فرحا وهو يبتسم:

" وستجدني رهن إشارتك"

ارتأى الشيخ معلى أن يقول مثل هذا أو أكثر، ليزيح عن صدره وطأة يكابدها منذ شجاره مع الشيخ المكي، وليمهد السبيل إلى مجد يتراءى لا يفصله عنه إلا وثبات يسيرة.

وكاد الوضع يُعرب عن جديته حين دُعي الشيخ معلى البارحة لتمثيل الطابور في اجتماع الأعيان بدون مقدمات كافية، حيث كان لإشارته أصداؤها:" فليعفنا السيد الصاص من قضية النساء هذه لكي يُبقي على شعبيتنا، وسيجدنا رهن ما يوكل الينا من مهام"

وأثنى الضابط على حماسته الفياضة، وواعده بالنظر مجددا في مسألة تمثيل الطابور بعد عدم صلاحية الشيخ بوخلوة وعنجهيته غير اللبقة؛ وعن قصد تجاهل رئيس مكتب الحرب النفسية قضية " الحسان الخمس" كما أصبحت تُعرف في الدوار.

منذ حضوره هذا الاجتماع غير المطول، عدل الشيخ معلّى عن مقاطعة مجلس المُصلّى، مظهرا كثيرا من التسامح تجاه السيناتور الذي بالغ في اعتزال الكوراط الجديد، رغم أساليب حديثه التي كانت قميئة بأن تورطه في حوار جماعي أو ثنائي معه، والحق أن الشيخ بوخلوة لم يتوان في التصدي له، وإفحام ادعاءاته المُبيّتة سيما منها تلك التى تخص ما يواجهه " الضابط" من ضغوط وعنت، في سبيل إبعاد ما يجعل الجيش في مجابهة مع الدوار والقرية.

" فلكم أحسست بمعاناته من خلال خطابه"

وأضاف مزهوا دون أن يشاطره المجلس فرحته:

" قال إنه ملمّ بنفسياتنا والتزاماتنا الدينية، ولكن التضحية بالجزء، تجنبنا التخلي عن الكل، فبالمرونة نكسب تفهم الآخرين"

وغادر الشيخ المكي المصلى العام في صمت مطبق، ولحق به الشيخ عطاء الله الذي ما أن ابتعد قليلا حتى قال:

" إنني كمسؤول فرع أعتزم إشعار القسم بطوارئ هذه الببغاء، وعليك أن تُمرر كتابي بوصفك قائدا للعرش."

" أبرقتُ إليهم بتمهيد حوله فنصحوا بمزيد من المعلومات"

وقال الشيخ عطاء الله في ضيق وهو يشخّص احتجاجه بأصابعه العشرة:

" والحركي؟"

" وهل أغفل أمره؟ لسوف تلعق دماءه العفنة الذئاب"

" ولكن كيف والحراسة على ما ترى؟! أخشى أن تُكتشف ثغرة مجرى الوادي فتوقف عملية التموين هي الأخرى"

وزفر السيناتور:

" هو ذا ما يثقل تفكيري؛ يكاد أسلوب تضييق الخناق يقضي على كل تحرك"

ولصقت عيونهما بشبح الواشمة وقد غادرت خيمتها نحو محضن الدجاج، الذي أعدته قريبا من زريبة العناز، وقد أحاطت بها الكتاكيت في اجتياح خلف دجاجة في حالة نفاس، وصاحت الواشمة:

" علي.علي، خذ هذه الكمية من البيض إلى الطريق العام، احذر الانتقاص من الدراهم"

وخلف "علي" سعت مجموعة من أنداده، تهزهم رغبة المشاركة في نشاط تجاري طريف وممتع.

أبـــــــواب الـــدهشـــة:

شدّ عيون الجمع هيكل السيارة " الجيب"، وعجلاتها تراود الكثب الرملي في عراك، إلى أن توقفت بعيدا من الشيوخ ليغادرها عسكري يحمل رشاشا، أدرك الشيخ بوخلوة من هيئته أنه مترجم النقيب، فوقف يتكلف البشاشة:

" السيد ميشال! مرحبا"

وصافحه العسكري وشفتاه تطاردان بسمة لما تستكمل ملامحها:

" الملازم جون نائب النقيب يحملكم هذا المظروف"

" انتظر ومن عساه يقرأه غيرك يا سيد ميشال؟!"

" حسنا"

وقال الشيخ معلى غاضبا:

" ولكنني القائم بأمر الطابور؟!"

وربّت المترجم على كتفه ضاحكا:

" الملازم أوصاني بتبليغ المظروف إلى الشيخ بوخلوة رأسا"

وافتضّ المترجم المظروف وقرأ على قسيمة داخلية ((الرجاء إشعار المدعو بوغريبة بالحضور شخصيا إلى الثكنة غدا صباحا)) وعلّق الشيخ معلى:

" ليدرك حجمه بحق"

نحو الثكنة أقعلت السيارة الخفيفة، ومجيئها يرسم على أشداق الشيوخ سؤالا موغلا في المبهم.

بوغريبة؟؟؟ !!!

وشكّ الشيوخ في كلمة الشيخ معلى؛ أيكون بوغريبة بداية اللعبة؟!

" بوغريبة يُستدعى إلى الثكنة بعيدا عن ديوان شؤون الأهالي؟!"

لاحظ الشيخ المكي في ذهول.

" إنها خاتمة مغامراته!"

عاود الشيخ معلى التعليق دون أن يفوز بمن يشاركه.

" هل اكتشفت الأسرار التي طالما أفضى بها اليه عبد الصابر؟!"

هامس الشيخ عطاء الله السيناتور الذي استبعد ذلك بقوله:

" كان الأحرى أن يُلقى القبض على عبد الصابر!"

" ومن أدراك أنهم فعلوا؟"

" بل ما سر هذا الأسلوب المهذّب في دعوته؟!"

أشار مراد في اقتضاب.

" كل ما يتعلق به غريب غرابة أطواره!"

استدرك الشيخ معلى في تعب.

كادت دعوة بوغريبة إلى الثكنة أن تطفو على سطح أحاديث الطابور، بحيث تراجعت أصداء اجتماع " الضابط" بالأعيان عن موقعها، كحدث امتصّت أهميته باقي الأحداث دون أن يفتكّ من الوسط النسائي إلا تعليق بنت النمر:

" زودونا بالخناجر ولنسارع للقاء هؤلاء العشاق الجدد"

وتلعثمت حليمة في قولها:

" أقسم إن للحركي يدا في دعوة بوغريبة"

" الحركي لا شأن له بالثكنة هكذا قال والدي"

رددت زينب مصححة في ثقة، وشرقت حليمة بضحكتها وهي تقول:

" لعله زوج سوزان دعاه للانتقام؟!"

وتدخلت والدتها من بعيد وهي تنظف قصعة الغسيل:

" وتضحكين أيضا؟!"

" ولم لا؟ ألا ترينهم في الجبل يضحكون حتى داخل الحصار؟"

" وهل نحن خارجه يا حليمة؟"

" صدّقيني يا أمّاه إنني لا أريد به سوءا"

وقهقهت والدتها في تعب:

" ومن يريد ببوغريبة سوءا؟! من؟

وقفزت زينب:

" أنـــــا"

وأجمعتا على سؤالها:

" أنت؟ ولم؟!"

" لأنه لا يتعشق إلا الفرنسيات، ويدّعي أننا قذرات لأننا لا نساير مجونه المجنون"

" ومن أنبأك؟"

" مراد"

" كاذب، وقصة الرابلة بم يفسرها؟"

" الرابلة هذه فرنسية أيضا"

"(مرادك)جاهل يا زينب"

" لا أسمح، تدافعين عن محتال متخاذل"

" أنت وشأنك لو كان كذلك ما دعته الثكنة رأسا، وهو ما لم يحدث إطلاقا من قبل"

تنامى الجدل بين الصديقتين وكاد يؤدي إلى قطيعة، لولا تدخل بنت النمر التي أنهت المشاكسة بقولها:

" يذكّرني أمره أحيانا بموسطاش، كان هو الأخر يبدو غريبا"

وقذفت زينب بحثالة نقمتها:

" وما الذي يمنعه من اللحاق بالجبل؟"

وضحكت حليمة:

" ولو سألتك عما يُبقي مراد؟"

وتمازجت ضحكتاهما معربتين عن أسفهما لما حدث، وتفرّق الجمع قبيل موعد الحظر بقليل.

انتهت القطعان إلى حظائرها بنهاية الطابور، والتهم بوغريبة ويعقوب والرومي عشاء معتادا، وتحركوا نحو زرائب الأغنام، وأثناء العشاء أطلع الشيخ بوخلوة بوغريبة عن فحوى المظروف الجديد، مشفقا عليه مما سيقع، ودعاه الشيخ المكي قبل الانصراف:

" قد يسألونك عن كل شيء؛ فأنكر كل شيء"

وابتسم بوغريبة:

" اطمئن"

" ولكن ماذا تعتقد بشأن هذه الدعوة؟"

وقلب شفتيه استياء:

" ربما تعلق الأمر بالماضي البعيد"

وأعرب عن حيرته:

" الماضي البعيد؟! أي ماض؟"

" لسوف أحدّثك بشأنه إذا أمهلنا الوضع"

بالرومي ويعقوب التحق بوغريبة مسرعا وتمدد بمخدعه، كان مبيتهم شبيها بالخندق ـ كما وصفه عسكري الحراسة أمس الأول ـ لولا أنه يقع على سطح الأرض، ويقوم على بضع أخشاب من عريش الوادي كجدران، شُدت إليها أعواد الدفلى بشكل أفقي، وفي تراصف مكثف سمح بتكويم الحلفاء على سطحها، قبل أن يجيء يعقوب بصفيحة من الزنك لتحل محل الحلفاء، مؤكدا صمودها في مقاومة الزوابع والأنواء، فاختصت الحلفاء بعدئذ بتفريش أرضية المنام وقبو السهر.

إن المبيت بهذه الصورة أصبح مبعث دفء حتى أمام هزات الشتاء، ولو أنه يقاسم حظائر الأغنام من حوله مجمل خصائصها العمرانية، كالباب وفجوات لا تزال تتخلل الجدران، والأتربة الطافية على مفارش الزقاق السعفية.

وحاول الرومي أن يعزف واحدا من ألحانه المفضّلة، بيد أن بوغريبة أسكته بإشارة شبه آمرة:

" دعه يعزف، القصبة وحدها تربطنا بالحياة يا بوعلام"

قال يعقوب وسكت وكأنه يفسح مجالا يستوعب تنهدا مسموعا أرسل به بوغريبة:

" عليك أن ترعى القطيعين معا إذا كان الغد"

" قطيع من أيضا؟!"

" قطيعي يا سيدي"

وقفز الرومي:

" رحلة نحو (عشبة خضّار)؟! "(17)

" بل رحلة إلى الثكنة، قيل إن نقيبا أو جنرالا دعاني"

" لماذا؟! أليستشيرك في شؤون الحرب؟"

ضحك يعقوب وقطّب الرومي.

" ربما"

وعاوده الجد هذه المرة فأوجسه الموقف:

" بوعلام احذر ذكري فأنت تعلم مهمتي"

وقال الرومي وقد وضع القصبة جانبا:

" قد يسألونك عن النعاج التي أوصاني الشيخ المكي بتسليمها إلى الجيش(آه ما نعرفك ما تعرفني) "

" ثم ماذا يا الرومي؟ لسوف أخبرهم أنك قاسمت مجاهدا زادك البارحة، وجئت برسالة إلى عرش الشيخ الفُضيل، وأعطاك عطاء الله جلابيب وخراطيش تبغ وشفرات حلاقة"

" أضف إليهم انني تعهدت لحليمة بقتل الحركي العاشق"

" أنت الأخر عاشق فهل ستقتل عاشقا؟"

وسكت الرومي فواصل بوغريبة:

" أجبني، الحب ذاته يرفض القوة"

وصاح يعقوب مباهيا:

" أنت العاشق إذن يا بوعلام أما هؤلاء الأطفال"

واحتدّ الرومي:

" أرجوك"

أدرك بوغريبة أن أعصاب الرومي متوترة لصمت القصبة، ولأن دعوة الثكنة جعلته صادقا في تخوفاته، امتنع عن الترخيص للرومي بالعزف ليتسنى له التفكير.

هل يفرّ؟!أم يلبي الدعوة؟!في أيهما الخلاص؟!

ما الذي جعل الثكنة تدعوه رأسا؟ وبتوقيع نائب النقيب؟، هل لأن ملفه القديم في أرشيفات الجيش الفرنسي عكس الآخرين؟!

أهي "سوزان" الداعرة عاودت صياحها في طلبه؟ ولكن بأية ذريعة هذه المرة؟! الدعوة تحمل اسم بوغريبة وليس بوعلام العايدي، كما يعرفه ديوان ضابط شؤون الأهالي.

أثناء هذا السيل من الخواطر المكبوتة كان بوغريبة قد أطفأ نصف علبة من سجائره، والنوم قد اختطف وعي يعقوب فيما يعتقد بينما طوّق الصمت زاوية الرومي في شكل احتجاج لا يخرج عن دائرة حظر العزف.

" بوعلام. ألا تزال مستيقظا؟"

" صدّقني يا الرومي لقد هجرني النوم لأول مرة"

" لماذا لا تفكر في الهرب؟"

" الهرب؟ من مجرد دعوة؟!"

" ليس هناك من بلغ القلعة إلا وسُجن أو قُتل يا بوعلام"

" صحيح ولكن أعتقد أن المسألة لا تتضمن كل هذه الخطورة"

" ما دام الأمر يخصّ الثكنة وعهدي بها لا تهتم الا بحملة السلاح أو المحالين على المكتب الثاني"

" المكتب الثاني؟!!!!! لا تذكره بالله عليك، إن به لوحوشا تفتك بكل كائن يلجه أو يقترب منه مجرد الاقتراب"

" لو كنت مكانك لفررت يساعدني الظلام"

" الرومي خذ هذه النقود وابقها في حوزتك، إنها ماهيتي السنوية لقد ابتاع عطاء الله الخراف الأربعة، احتفظ بهذا المبلغ وإذا لم أعد حله فورا على الشيخ عطاء الله كهبة لمالية القسم"

وكاد الرومي يجهش، هل صحيح ان المرعى سيفتقد مرح بوغريبة وأقاصيص غربته؟ وألوان التبغ وتهاويل الحدائق التي ترسمها المخيلة في نهم رومنطيقي؟!

من سيبلغ الطابور أسرار الضابط ساخنة؟ من سيرتبط بعبد الصابر بعده لهذه الغاية؟ ومن سيردد كلمات " زهير" على أسماع العراء؟ من ستبكي بجانبه القصبة في أنس؟ من؟ من؟

إن المرعى سيصير ضيّقا كصدر يحتضر؛ ولا إراديا أسقطت عيناه دمعتين بطيئتين، وحينما مسحهما لاحظه بوغريبة فأحس بما يشبه الوخز في قلبه:

" أتبكيني حيا أيها الفنان الوديع؟!"

وبكى الرومي فعلا وهو يقول:

" كلما ائتلفنا أحدا إلا واختطفه منا الموت أو ما يشبه الموت!"

والتفت نحو يعقوب حانقا:

" انهض يا أخي أتطاوعك عيناك على النوم؟!"

وقال مغمضّا:

" لم أنم يا الرومي"

" وتبكي أنت الأخر؟"

وإلى هنا أجهش بوغريبة بأدمع أولى، وهو الذي بات يعتقد بفخر أن هندسة تجاويف عينيه تتناقض تماما مع قابلية استدرار الدمع.

كل ما يحسونه بلوعة أن البكاء لا يوقف زحف الليل الذي كان عليه أن يخلي مواقعه لصباح يقاسمه خاصية التلغز، وبعد الإشراق بقليل تراءى بوغريبة بمفرده يعتلي الهضبة الصخرية التي ستفضي به مباشرة إلى برج المراقبة، ومنه إلى باب الثكنة ذي الدفتين الفولاذيتين؛ أوقفه مركز الحراسة بإشارة من العسكري صاحب الخوذة الداكنة الطلاء، وقفازاه الطويلا الذراعين يرسمان فكي كماشة، وما أن استظهر الورقة المتضمنة للدعوة حتى أومأ الحارس العسكري إلى عسكري كان يقف بالقرب منه.

صحيح أن هناك تعقيدات وصمت مخيف يضفي عليها مزيدا من الطلسمة في نظر بوغريبة، ولكن يديه لا تزالان خلوا من القيد وهو ما يشير إلى أن مزيدا من الإجراءات ينتظره.

أدار خلده هذه الفكرة وهو يسير خلف العسكري باتجاه وصيد مطبق في نهاية رواق ممتد، في غير اتساع تتخلل سقفه فجوات تسترق أشعة الشمس في حياء أحيانا.

دقّ العسكري المرافق الباب الخفيف الطلاء، وفتح مشيرا إلى بوغريبة بالدخول قبل أن يرسم قوامه القصير تحية عسكرية، كان المكتب الفولاذي يئن بأكوام أوراق تنصص بعضها بأحزمة قماشية ، تماما كالتي تستلقي في نظام على سطح الخزانة المزججة الرفوف بزاوية محاذية لباب داخلي، أيقن بوغريبة أنه لا يفضي إلا إلى زنزانة أو مكتب استنطاق.

انصرف العسكري المرافق، فودّع فيه بوغريبة أخر بقايا المحيط الخارجي، ورفع ضابط الصف نظره عن الأوراق فحيّاه بوغريبة.

" أتحسن الفرنسية؟!"

" بعض الشيء"

" عظيم"

وبالهاتف حادث شخصا ما، أدرك بوغريبة انه يعلوه رتبة، بل انه يقاطع أحاديثه معه بكلمة (حضرة الملازم)، الملازم إذن لايزال يجدّ في طلبه! المكالمة تتعلق بالدعوة إذن؟ ما في ذلك ريب، وضع السماعة وأشار عليه:

" تفضل اجلس"

(تفضل؟!) أية كلمة تلك؟!أهم يستقبلون بها أسرى القلعة؟!هل يختلف العسكريون عن شرطة الحديقة؟ يشاع أن ضابط شؤون الأهالي وحده هو المهذّب في هذه القرية، فما بال العسكريين أحسن تربية منه؟ ما سر هذه المعاملة شبه المهذبة؟!

أين القيد؟ أين النطق بالسجن؟ من القاضي؟! وأمهل بوغريبة نفسه، لعل للملازم شغلا أرجأه عن الإسراع بالقيد؟ لعل؟

أعاد ضابط الصف بصره إلى أوراقه يستكنهها، تاركا الدهشة تركب بوغريبة فتحلق به في أجواء كل احتمال.

وحين تناول ضابط الصف قلما توقّع بوغريبة أن موعد الاستنطاق قد حان، غير أن الضابط لم يسأل الا قلمه، وحاول أن يسأله هو بدوره عن مدعاة إحضاره إلى الثكنة، ولكن لماذا يستعجل شرا آتيا بلا شك، فهو ليس ملقى على ظهره يتجرع سائل الملح، ولا يتلقى جسده مكواة الكهرباء في غيبوبة، ولا هو بحجرة ثعبان الأدغال الذي تداعب أنيابه أطراف الأسير في ظلمة داكنة، لم ليس بعد ليس.

ورن الهاتف ثانية فأسرع ضابط الصف بالإنصات:

" أمركم حضرة الملازم"

وضع السماعة وقام متناولا معطف بذلته من على المشجب القريب منه، أشعل لفافة وأقفل الخزانة بإحكام مخاطبا بوغريبة:

" هيا يا صاحبي"

إلى أين هذه المرة؟!هو ذا السؤال الذي يستلقي في تكوّر ثعبان الحجرة بخلد بوغريبة، فتح الباب الذي سبق أن دخل معه بوغريبة قبل حين، وغادرا المكتب عائدين مع الرواق شبه المظلم ذاته، لولا ان ضابط الصف قد انعكف تلقاء قبو مزلّج الأرضية تتقابل بجدرانه مجموعة من الأبواب المغلقة الصامتة، وقبيل نهاية البهو أمره بالتوقف.

" انتظرني"

فيم كل هذا؟ تساءل بوغريبة، وضابط الصف يلج بابا لحسن الحظ لا يحمل رقم (2)، **أي أنه ليس المكتب الثاني؛ وهو جهـــــــاز المخابرات الرهيب**، اشتد به الندم، لماذا لم يفر عملا بنصيحة الرومي؟ لكم كان مصيبا ذلك الطفل المعتوه في رأيه البارحة:

((ليس هناك من بلغ القلعة إلا وسُجن أو قُتل يا بوعلام))!!

((الثكنة لا تهتم الا بحملة السلاح، أو المحالين على المكتب 2))!!

من المتوقع جدا أن يسفر الباب المقابل عن ذلك العملاق " جوليا" جلاد القلعة، أو عن شخص مساعده "أنطوان" المتحذلق، وظلت عيناه مشدودتين إلى أشعة الشمس المنبعثة من إحدى فجوات الرواق، الشمس؟ !لسوف يفتقدها وإلى الأبد، لسوف يُلقى به في إحدى الزنزانات الرهيبة، أمر موجع أن يُبعد عن النظر إلى الشمس وقاتل.

وارتطمت عيناه بمزلاج الباب يتحرك في غير صخب، وتراقص الطيف أمامه، وفغر فاه متلعثما ودهشته تكبر نظراته المرتجفة:

" مـــــن ؟!"

" خديجـــة ؟!"

" بوعـــــلام"

" أيتها المجنونة"

عانقها في تحفظ وتجهمه يضرب على محياه دكنة سميكة ، وبادرته وعيناها تحاصرانه:

" مجنونة؟!! أهكذا تستقبلني؟"

وتلاعب لسانه كصخرة تسدد هدير الوادي في موسم فيضان:

" دعوات رسمية وليلة أرق مخيفة، وشبه طوارئ في مراقد الطابور، أكل هذا من أجل أن نلتقي؟!"

" وهل يمكن أن نلتقي بدون كل هذا؟ كل ما في الأمر اني انتهزت فرصة مجيئهم بنا إلى الثكنة فقررت رؤيتك"

ودخل غضبه طور التنازل:

" صحيح ولكن ليس إلى هذا الحد، ليس إلى أن يبيت الدوار باكيا"

" أعرف أن الجميع يحبونك"

" خديجة؟"

" ماذا؟"

" ذري لغة الماخور جانبا أرجوك فما نحسه اليوم هو لغة الزنازين فقط"

" صدّقني أنها لغة، لغة الضيعة، لغة القلب، وهي زنزانة أفظع في نظري من زنزانات الجناح الأخر من القلعة"

وسكتت ثم أخذت تتحدث من جديد وعيناها مركزتان على الباب الموصد:

" ألا ترى أن ضباطا سامين يُسيل لعابهم حلم خلوة كهذه، ومع ذلك؟!"

واشتط ثانية:

" ومع ذلك فضّلت عنهم راعيا أم ماذا؟"

ووضعت أصابع يدها على شفتيه:

" لا تقل هذا أرجوك أسكت أسكت فقط"

" أحس بكل هذا يا خديجة، ولكن بماذا أقابل الطابور؟ ليست هناك تحركات إضافية في هذا الوقت، فحين تتحرك عليك أن تُهيء الجواب؛ فأنت إما آخذ أو مأخوذ منك، ودخولي الثكنة لابد أن يخدم واحدا من الطرفين، الدخول ليس حياديا كما تتصورين، ماذا أقول للرومي ويعقوب اللذين قضيا ليلتهما باكيين كالأطفال؟؟؟"

وقالت كما لو أنها لم تجار أفكاره:

" منذ متى كنت تحفل بالآخرين؟"

وبتأثر باد:

" إذا لم أحفل بهم فأنا محسوب عليهم، وهذه صفة لا ترتضينها لي فيما اعتقد"

وتنهدت:

" تتحدث لغة العشاق لغير صالحي"

" دعي ذلك يا خديجة لم يعد الأوان يستسيغه"

" وأوان ماذا هذا الذي يجمعنا؟"

" أوان الثكنة"

وضحكت ساخرة وهي تطقطق كعبها العالي على البلاط:

" وثكنة المدينة؟ ألم تتعاط العشق في تابوتها المزدان بثريات اللهفة؟"

وأضافت في ازدراء:

" أراك عفيفا منذ الآن!"

وفي رزانة أشار بيده:

" هذه الزنزانات بجانبنا تلتهم أسرى يئنون في الأغلال"

" سلواننا ليس قميئا بإطلاق سراحهم"

وغمغم:

"إنهم رواد العشق الأبدي"

وحاولت إثارته عمدا:

" الرومي أيضا يعشق بالمؤبد"

وضحك بوغريبة:

" لقد صرت مناظرة لا يمكن إفحامها؟"

وتنهدت بدورها:

" تخاطبني كمحايدة! وعذرك أنك تجهل وجهي الأخر!"

" صحيح؟!"

وحاول أن يقرب يده من يدها فصدته في عنف، وتبللت عيناها ولكنها اضطرت إلى مهامسته خوفا من أن يكون بالمكان أداة تسجيل:

" إسأل عن المتلثمة التي أطلقت النار على مخبر الاستنطاق بسوق الخضر"

وأضافت وعيناها تذرفان خاثر الدمع:

" وعن التي طلبت إلى النقيب أن يصطحبها بسيارته إلى نزهة بالغابة الخلفية، أين استسلم للكمين صاغرا"

" وماذا فعلوا بك؟"

" كان حريصا على ألا يرانا أحد معا خوفا من الرائد الذي كان يهيم بجمالي، وبذلك تم اقتياده؛ ثق أن أنبأ مقتل الرائد ذاته ستبلغك"

وتجاهلت اعتذاراته.

" ونقيبكم الذي أصبح(طارزا) القرية، آه لو أقيم هنا. لست محايدة يا بوعلام ولكنني مع ذلك أحبك"

وتساءل بوعلام في نفسه: من أفلح في تصويب نقمتها نحو الضباط؟! وقالت فور أن هدأت:

" وأنت؟ حدّثني عن نفسك"

وسألها دون أن يجيب:

" والخنثى؟"

" أخبرني عنك، عن دقائق حياتك المهجرية كما يفصلها ملفك احذرهم يا بوعلام"

وأردفت:

" لماذا لا تفكر في الفرار إلى الجبل؟"

" نصحوني بالبقاء"

في هذه الأثناء برز وجه ضابط الصف من خلف الباب، فعمدت " الرابلة" إلى القول:

" وخالتي منصورة لعله بلغها الشال الذي أرسلت به إليها؟"

واختفى وجه ضابط الصف بعد أن خاطب بوغريبة:

" لك أن تنصرف فور انتهاء اللقاء، هي ذي أوامر الملازم"

وتضاحكت الرابلة:

" شكرا"

وقال بوغريبة كما لو أنه تذكر شيئا:

" وهل أنهيتن مهمتكن في القرية؟"

وبصقت على البلاط، لم يخض معها بوغريبة في الموضوع **،موضوع المومسات اللائي جيء بهن عوضا عن " الحسناوات الخمس"والرابلة واحدة منهن طبعا**، كان يشده التفكير في أمر الضابطين اللذين زعمت انها أودت بحياتيهما، هل في إمكانها القيام بذلك؟ أم انه من باب طمأنته على وحدة القناعة بينهما؟ وواصلت حديثها:

" ثكنة بهذا العدد لا يوجد بها امرأة إلا عشيقة النقيب، التي اعتادت قضاء عطلتها بالقرية؟!"

" ومن هي؟"

" الأنسة شونتال"

" ليست بأحسن منك ولا أكثر ثقة بالنفس"

وتنهدت بعمق:

" أحسن وأنظف أيضا؛ أنا مطعونة الأخلاق يا بوعلام"

" ظروف ظروف"

" أنت تجاملني؟"

قالتها وانصرفت نحو الباب الداخلي قائلة:

" انتظرني"

لم يطل اختفاؤها فقد عادت إليه تحمل شيئا يشبه الطرد البريدي وسلمته إليه في رفق:

" بعض السجائر فقط لا تؤاخذني لم يمهلونا لاقتناء أشياء جديرة بالمنح"

وطلبت إليه أن يكشف الثوب عن ذراعه، لترى الوشم الذي يجسّم يدا بشرية ممدودة السبابة، ففعل.

" حسبي وجهك آراه"

واحتدست أنه غير صادق فعانقته وافترقا.

قطع بوغريبة منحدر القلعة مسرعا تدفعه المفاجأة السارة التي أسفرت عنها دعوة الملازم، هل إن الثكنة أحيانا تدعوك لأمر يسرك؟!

تساءل وهو يلهث لشدة العدْو الذي انطلق فيه مذ غادر برج الحراسة، مذ أن عاود رؤية الشمس، كان فعلا يستعد لتلقي التهاني واحتار فيما إذا يلحق بيعقوب والرومي في مرعاهما، أم يقضي يومه محاضرا بين الخيم حول جزئيات لقاء مثير قد يُمتّع الجميع سماعه؟؟

الرابلة؟! هذا الوجدان الدافئ من قاده إلى دربه بكل هذه السهولة؟ وجه صبوح فعلا ما أن يلتقيه حتى تنجرف بداخله حيوية، وارتياح عجز السهب والدوار عن استظهارهما من تحت حمأة اليوميات القاتلة للنوازع.

كل هذا، وظل يؤكد لنفسه انه أقوى من الانجذاب، ولم يكن بهذا التأكيد إلا يترجم إحساسا باطنيا، فوظيفته أن يتلقى، أما التفاعل فمن وظيفة الرابلة، وعليها أن تُحدث هذه القابلية في صدره إن استطاعت، أو تلتزم أحادية الفعل.

وألقى نظرة سريعة على ما تحت إبطه بداخل علبة الورق المقوّى التي تحتوي هديتها، وابتسم لخليط يتجانس بهذه العلبة؛ حلوى ، سجائر، صور شمسية ، وساعة جيب، وعمامة ، وأشياء أخرى تسربت إلى أسفل العلبة، وصادف في طريقه إلى الطابور أطفالا يسعون تلقاء الوادي، فمنحهم قطعا من الحلوى ، وافترس علبة

سجائر فتناول منها لفافة فاخرة، واستشرف جمع الشيوخ بالمصلى فخيل إليه انهم ينكسون رؤوسهم، كما لو أنهم يؤدون حركات جنائزية في ديانة غير معروفة، وحيّاهم فلم يزد بعضهم على أن همهم في غموض وارتباك.

وانتصب إلى جانب الشيخ بوخلوة الذي لفّه بنظرة فاحصة لم يعهد قوتها فيه من قبل، وأخذ مكانا بمحاذاة مراد ونفسه تحدّثه أن سيلا من الأسئلة سينهمر، وكان فعلا قد هيأ الجواب، إذ لا يعقل وليس من تقاليد الدوار، أن يخاطب شيوخا كهؤلاء عن لقاءات " الرابلة".

لسوف يجيبهم أن الثكنة دعته رغبة في التجند لأنه يحسن الفرنسية، وقد رفض لأسباب تخصه، وأن رفضه أقام شجارا بينه وبين النقيب، وتقضت فترة صمت دون أن يحدث ما توقعه بوغريبة أو قريب منه، فالشيخ عطاء الله يستمر في كلامه حول عادات الزواج عند القبائل الجنوبية، والكل ينصت في أدب جم.

" لكأنكم كنتم تنتظرون اعتقالي؟"

" هو بعض ما اعتقدنا فعلا"

سارع الشيخ معلى بالجواب كعادته، ورمقه الشيوخ كما لو أنهم يناهضون الحديث في الموضوع إطلاقا، استمر الشيخ عطاء الله في سرد قصص رحلاته، ولاذ بوغريبة بسكون وقد أخفى هدية الرابلة، وأصلح عمامته وعيناه تناشدان الشيخ بوخلوة أن يفصح، بيد أن هذا اعتزل تبادل النظر، اتجه بوغريبة صوب خيمة " الواشمة"، لسوف يهدي أطفالها الأيتام بعض قطع الحلوى، وما أن استجمعت عيناها الشاردتان قوامه حتى صاحت:

" بوغريبة ؟! ما هذا الذي أقدمت عليه؟!"

وكاد يبكي:

" ماذا يا خالتي؟! ما بال أسئلتكم معكوسة منذ اليوم؟"

وظل صوتها يحتفظ بشدة اللهجة:

" أتنكر أن الشيخ المكي قد ألقي عليه القبض بوشاية منك؟!"

ومدّد كلماته في احتقار:

" ماذا؟!!!! بسبب ماذا؟"

لم يلج الخيمة كما كان يعتزم، بل عاد أدراجه إلى حلقة المصلى وزمجر قبل أن يصل:

" من الذي وشى بالشيخ المكي أيها الأفاضل؟!"

" تسألنا أم نسألك؟"

أرعد الشيخ معلى وعيناه تحاولان رسم صدق انفعال، وتجاهله مستطردا حديثه الذي شرع فيه من قبل:

" ضابط الصف الذهبي الطاقم، اشترى تسع عشرة قطعة من مزارعي القرية دفعة واحدة، وأقامهم خماسين عليها، لقد أصبح بحق ذا عقار"

" وهل ماهيته تسمح له بذلك أو أكثر؟"

" اشترى أيضا مياها تفوق حاجة الأراضي، وهو يستخدم الفائض منها للكراء، عشرة ألاف فرنك للساعة الواحدة"

" وبعضهم يستبدل بالرجال فرنكات صدئة مقابل اقتناء السجائر"

زفر بوغريبة وقد طال وقوفه قريبا من المجلس كعمود نور مختل المصباح، وهرول صوب السهب حيث يعقوب والرومي، شاتما الرابلة على مسمع من أذنيه، مخلفا الطابور في حالة ارتجاج قصوى.

" ألم أقل لك يا حليمة وأنت تجادلين عن جهل بحقيقته؟"

رددت زينب في ثورة.

" لقد خُدعتُ فيه"

همست حليمة خلف دموعها.

" مراد استغوره بعمق"

" وماذا يعرف عن أبي ؟! الخبيث؟"

" بل ماذا صنع أبي ليُسجن؟"

لم يتم إخلاء سبيل الشيخ المكي خلال اليومين المواليين كما اعتقد الدوار في شبه إجماع، ومعنى هذا أن الإدانة أصبحت نافذة، وهي من الخطورة بحيث أخذت مدة عقابها تخرج عن ظرف الحبس لتمنح نفسها صفة السجن.

" ولكن مدة الحبس عندهم غير محدودة"

قال الشيخ عطاء الله، وما كان انتفاء الدعوة ليبرئ ساحة بوغريبة ، فهو الذي تلقى دعوة الثكنة كسابقة، وإلقاء القبض على السيناتور إنما حدث أثناء وجوده بالقلعة.

بوغريبة أكثر من يعقوب والرومي يدرك خطورة الدور الذي يؤديه السيناتور في ربط الطابور بالقسم، بل إن الرومي ذاته هامس يعقوب في وصية بوغريبة قبل شخوصه إلى الثكنة:

" قال لي: ((احتفظ بهذا المبلغ وإذا لم أعد، حله على الشيخ عطاء الله كهبة للقسم)) "

وبرقت عينا يعقوب في صدق:

" ((فهمت، أغفل ذكر الشيخ المكي مع أنه قائد العرش!!"،

ولكن ضابط شؤون الأهالي هو الذي ألقى القبض على الشيخ المكي، وبوغريبة اتجه إلى الثكنة حيث النقيب؟!"

" ومن أدراك أن الديوان حوّل الشيخ المكي بدوره إلى الثكنة؟"

" جائز"

وبادره الرومي:

" يعقوب؟ من سيوزع المنح الشهرية على الأرامل والأيتام في غياب الشيخ المكي؟"

" أكيد أن أحدا سيخلفه"

وأسرع الرومي بالعودة إلى موضوع بوغريبة ليزيل إشكالا طارئا:

" الملازم يستدعيه وهو ينكر لقاءه به! ثم هل يحدث أن تتحكم مومس في ثكنة، فتستخدم ضباطها كما تشاء؟"

وضحك يعقوب وهو يجسم سخريته:

" لا اخال سجائره الفاخرة سوى هدية من الملازم مقابل؟"

وقاطعه الرومي:

" أتذكر مواسم ترددده على المدينة؟"

" أجل، وما بها أيضا؟"

"أكاد أجزم أن حكاية الرابلة من أساسها مفتعلة، وأن صاحبنا كان عينا للفرنسيين على تحركات الدوار منذ ذلك الحين"

" وأسرار الحركي عبد الصابر التي كان يهربها للشيخ المكي؟"

وتنهد الرومي:

" نقسو أحيانا في المحتمل ولكن لا أدري"

دلف بوغريبة إلى خندق المبيت، فأجهض شبحه المهتز همس الزميلين، وسارع يعقوب إلى استبدال الحديث في ذكاء مفضوح:

" سعيّد مات قبل حيزية"

وتفطن الرومي فساير الوقع:

" بل حيزية ماتت قبل سعيّد"

وعلق بوغريبة متهيبا الحوار ومحيّاه يعكس موجة من قرف:

"ألأهم من كل هذا أنهما ماتا فاستراحا"

وأعاد إليه الرومي المبلغ المالي الذي اختزنه عنده قبل زيارة الثكنة، فمسك الأوراق النقدية بشبه عصبية، وانزوى بركن المبيت وقد تلثّم بما فضل من عمامته، كان الوجدان المرح يكابد معاناة في ثقل الرواسي، أهو تكبيت ضمير؟ أم أثار لعنة كاللعنات الوثنية القديمة؟ أم تجريم غير قابل للدفع؟!

في نظر الدوار سقط تمثال بوغريبة بغتة، تماما كشبح من قش لا يقوى على مجابهة العواصف.

أفرغ الشيخ معلى تعاليقه بشأن الحادثة، وقضى بوغريبة بقية ليله بخيمة الشيخ عطاء الله متحديا هذه المرة حظر التجول؛ فنهاية اختراقه الموت؛ والموت غاية طبيعية ينشدها الآن بالذات، فقط على هذا الموت أن يفد اليه من مصدره الطبيعي، من القلعة.

تضرّع رجل الأسفار إلى الشيخ عطاء الله ليؤجّل إشعار القسم بما حدث، وأنكر هذا علاقته بالقسم، بل تساءل عن هذا المصطلح الذي يسمعه لأول مرة "القسم!!!".

" أشر إلى اعتقال الشيخ المكي فقط، على أن تُلحق التعليل فور اتضاح القرائن"

" اعتقال، قرائن، تعليل، صدّقني لا أفهمك"

" أعرف أن القسم يهمه السبب أكثر من الخبر لكن"

وقاطعه جادا:

" ما دمت تعرف أساليبهم، فلم تسند إلي مهمة إشعار جهات لا أدري إن كانت موجودة بالفعل؟!"

" استوضح عبد الصابر؟"

وكأنه يعلن عن نهاية المقابلة:

" هذه أمور لا تعنيني على الإطلاق على الإطلاق"

واعتدل بوغريبة واقفا وهو يقول:

" لستُ أفضل من كثيرين ماتوا ضحية الالتباس"

وكاد يزجره ولكنه أظهر الحياد، وردد الشيخ عطاء الله في نفسه " إنها الثورة، وهمها منّا الوضوح ما أمكن، كما يردد جمال دائما".

اتجه بوغريبة تلقاء خندق المبيت، وحججه تتناثر من حوله، ليس من بينها واحدة تقوى على الصمود، كل القرائن تخدم التهمة؛ والتهمة تتعلق بالشيخ المكي بالذات، وهنا تبلغ مأساته شأوها.

الشيخ عطاء الله شخصيا أخذ يعلك فكرة الفرار، فالوشاية في كل الافتراضات لا يمكن أن يقتصر أمرها على الشيخ المكي، والشيخ المكي نفسه لا يُؤتمن تجلّده أمام ضراوة الاستنطاق التي أصبحت تعرفها القلعة، مذ أعطيت صفة المكتب الثاني.

ووفد عليه الشيخ مبارك في خيمته صباحا، محتفظا بكل أعراض الحيرة:

" هل من جديد يا شيخ عطاء الله؟"

ودعا بشاي وكأن السؤال لا يعنيه، لكن سرعان ما انجرف حديث أخذ يتطحلب بداخله:

" بوغريبة؟ أمره يحيّرني، أخشى أن نظلمه!!"

وضحك مبارك في صدق:

" وهل تخال القسم جزارا أعمى يذبح بدون تحرّ كاف، فحين يتعلق الأمر بالإنسان، لن تجد متطوعا لقتله إلا بإدانة ثابتة؟"

" ضابط شؤون الأهالي أيضا يشيع مثل هذه الرأفة!"

" الوضع يختلف، القسم هو الأخر لا يدّعي إنسانية تجاه العسكر، أما الشعب فمن يرحمه غيره؟"

"أحيانا يعتمدون شفقة حتى تجاه العسكر لكسب ذويهم"

احتسى مبارك جرعة صغيرة من كوب الشاي:

" بوغريبة أخر من يُتهم في قضية الشيخ المكي، فقبله بالضرورة يصنّف الشيخان بوخلوة ومعلّى ثم الحركي العاشق"

" صحيح أن الإدانة لم تعرب عن نفسها، لكن لا مفر من تعليل ما حدث، ولكنك تتجنى حين تدرج الشيخ معلى تحت الاشتباه والرجل لم يغادر الطابور يوم القبض على الشيخ المكي، أما الحركي فجاهل لصفة المكي، وبوخلوة ثار على الضابط ذاته كما تعلم"

" ثار؟!! ومن أدراك أنه تقاسم أدوار؟ ثم هل الذي يشي بأحد ملزم بالشخوص إلى القلعة؟، كان بوسع بوغريبة أن يفعل دون أن يُدعى إلى الثكنة، وعبد الصابر يكفيه كل هذا العناء لو شاء"

" عبد الصابر لا يطاوعه، إنه أشرف حركي على الإطلاق، على الإطلاق"

لم يستقر رأي الشيخ عطاء الله على مرافعات مبارك، فمبارك كآخرين لم يطمئن إلى التغيير الذي طرأ على مواقف الشيخ بوخلوة ، وكأن الشيخ بوخلوة خُلق على هذه الصورة ، صورة رافضة للتهذيب ، بالأمس القريب كانا كلاهما مبارك وعطاء الله يجهلان ما يخوضان فيه الآن، فكيف اهتديا إلى بوابته؟

يكفي أن يكون المصباح قويا ليُهدي كل مدلج، وحين يشحّ المصباح قليلون جدا هم أولئك الذين تكون أقدامهم قد ألفت حصى الطريق، بشكل يؤهلهم على الاستمرار في التزامه، ومادام المصباح كما يراه الشيخ عطاء الله اليوم يضاهي الشمس في ثقلها الحراري، فلا ينكره إلا مصاب بغريزة الرمد.

غير أن الشيء الذي فات الشيخ عطاء الله ومبارك معه، أن أفضية السهوب قد افتقدت بسماتها الصباحية في عين بوغريبة، فلفّها سواد الأراضي المُحرّمة رغم أن القطعان تسترعيها في يسر وتريث، وسنوات الثورة ـ كما يشاهد مربو الماشية ـ هي من أخصب أعوام العقدين الماضيين، فخلف الأسيجة المكهربة أينعت أزاهير الأيهقان تحتضنها نباتات الحارّة والجرجير لتكسب الدمن الرملية لون الحدائق الغنّاء ، وسطوح السهول شقق خدودها "الترفاس"(الكمء) وقذف كبيره بالقشرة الأرضية ليحدق في الشمس علنا، وعلى قمم الآكام الصخرية علت سعاليج " القيز" بعيدا عن عبث الأطفال، وبلونها الأغبر نازعت خُضر الفوقّاع (الفطر) جذوع الأشجار وطحالب الأدغال.

ولأنها خارج السياج المحيط بالمحتشد، اعتاد الرعاة وحدهم أن يؤوبوا مع الأماسي محمّلين بهذه الألوان الغذائية جميعا، وكان بوغريبة أكثر زميليه حملا وتفننا في الانتقاء، فبنت النمر وحليمة والواشمة والخالة زهرة وأخريات، لا ينعمن بخضر السهوب إلا من جراب بوغريبة.

وحين امتنع عن التموين تحت الأزمة النفسية التي تجتاحه، كنّ في حقيقة الأمر من أوائل المتضررات، بل إن حليمة قررت أن ترده بما يحمل إذا ما أقبل المساء، لكن قراره جاء سبّاقا، ولأنها مولعة بـــ"الترفاس" طلبت بعضه من الرومي، فكاد يشرع في عزف لحن داخل خيمتها، فأضحكها الموقف رغم مأساتها.

" حليمة! هل تعتقدين أن بوغريبة "

وقاطعته:

" لو ظننت أنك ستذكر اسمه بخيمتي ما طلبت إليك ترفاسا"

" إنني أشك فيه لكن"

" لكن ماذا؟!"

وعدل عن الكلام خوفا من ثورتها في وجهه.

" لقد قاطعناه يعقوب وأنا لن يجمعنا به حديث ودّي"

أفراد الطابور جميعهم أخذوا يتطيرون من بوغريبة، وهذا ما يستشعره بعمق دون أن يتسمع تفاصيل هذه الطيرة، ولو شغلت باله أكثر من أي أمر أخر.

والرابلة؟ آه لو تعلم انعكاس زيارتها عليه، تعتقد المسكينة أنها جددت عهدا بما يكفل استعصاءه عن الصرم، ولكن الواقع لا يطاوع خواطر أحد، وبوغريبة ـ حتى وإن لم يحدث ما يجابهه الآن في تحد ـ ما أعار لقاءهما فوق البسمات المتكلفة التي تظاهر بها أمامها، ولعلها لذلك لجأت إلى دعوة رسمية لا تشتم منها رائحتها، وإلا كان قد عدل عن الزيارة لو علم أن الأمر يتعلق بها هي فقط.

ما يغبطه عليه آخرون أنه محظوظ وفي هذه الزاوية بالذات، لأنه يحمل نظرا لا يتعامل مع الكائنات والاشياء بأثر رجعي، وكاميراه تجهل لعبة الارتداد المقيتة.

كان جالسا إلى شجرة بطم وكأنه يتفيأ ظلالها الممتدة، إلى أبعد من المساحة التي تغطيها جذوعها في منحنيات شديدة الالتواء كعقود شهادة ميلاد غابرة.

إلى أسماعه ترامت أنغام الرومي من هضبة محاذية وكأن شيئا لم يقع يمنعه من الإدمان على العزف، بل إن يعقوب رافق الإيقاع في خفة بكلمات لا تتضمن إلا مزيدا من التشكيك:

" ما صرنا كي أزمان شوف اتبدّلنا

وانسينا ما جار عنّا بهوالـــــــو

أنسينا سادات ماتو بالغبنـــــــــه

ومن عاشرهم بالخدع يا تهوالـــو"(18)

ولحسن الحظ أن يعقوب لم يرتبط بهذا الاستهلال المخيف، إلا ليوصله إلى أغراض أشد التصاقا بلونية وجدانه، وفعلا فالرومي هو الأخر التمس تخفيفا في اللحن إلى أن صيّره يقترب من لحن " مدّاح المدينة"، وتنهد بوغريبة في عزلته السهوبية المهينة:

" آه يوم أن كانا لا يفرقان بين الأحرار والعفاريت!!"

انقذف صوت يعقوب ليكوّن وألحان القصبة نسقا منظّما في غاية التكامل، وارتمى يعقوب واقفا ورسمت هيئته لقطات رقصة طويلة النفس، غالبا ما حددت اتجاهات عصاه الغليظة ذبذبات توجهاتها الإيقاعية بدقة، وأقلع عن الرقص هكذا بدون مقدمات كعادته وغنّى ضارعا.

بعيدا منهما ظل بوغريبة مسمّرا في مكانه تحت شجرة البطم العجوز، وكأنه يستفتيها في بعض تعاريج صباها التي ترسمها مستظهرات الجذوع الواضحة، ولم يدر بخلده قط أن الرومي ويعقوب إنما كلفا بتتبعه من قبل الشيخ عطاء الله، وإلا كان لجلسته تلك شأن أخر.

ما يشدّه الآن أن أنغام الرومي قد توقفت، وخُيّل إليه أنها إنما أجهضت، فمن عادة الرومي التي غالبا ما داعبه بها أيام الصفاء ذلك الشبه الذي يربطه بقائد الطائرة، حيث يعمد إلى التحليق قريبا من المطار دون أن يداهمه مباشرة وبصورة رأسية انتحارية، حدّد بوغريبة نظره غير أنه لم يعكس بملتقى القطيعين سوى شخصي الرومي ويعقوب، وكأنهما يوقّعان هدنة بين جيشين متقابلين؛ وحاصرته صيحة من خلفه امتقع لها لون وجهه:

" أنت بوغريبة، بوعلام العايدي؟!"

الصيحة صدرت عن رجل مقنّع يشهر بندقية ويرتدي جلبابا بنّي اللون، وعمامة تقاسم الجلباب معظم خاصيات صبغته:

" نعم"

" أضف القطيع إلى زميليك وسر أمامنا"

فعلا لقد كانوا ثلاثة بذات الشكل، ولو أن المرافقين لم ينبسا، تحرك يجرر رجليه، مطأطئ الرأس، كاظما غيضه على شخص ما، لكن من هو؟ الشيخ عطاء الله الذي لم ينزل إلا عند إلحاح أنانيته؟ ،الرابلة ؟ إنها مصدر الداء كالمعدة؟ في مرارة كان يتشرّب تحفظ الجميع إزاءه، وقد حاول إشعال لفافة فزجره رجل الصيحة الفجائية الأولى:

" أجّل ذلك إلى حين وصولنا"

وصولنا؟!إلى أي مرفأ يساق هذه المرة؟ منذ أسبوع سيق تحت مخاوف دعوة الملازم، واليوم يساق إلى حيث لا يدري.

" هل أصبح غامضا في نظر هؤلاء أيضا؟!" ،

هو السؤال السابح بدون عناء، على سفوح المنحدر القائم في واجهة الشمس؛ وأيقن بوغريبة أن قمة المنحدر ليست قفرا كما ظل يعتقد، ففيها يتكلم الشجر، وتتقن الصخور مواقعها.

" الساكنين الأوعار"!!!

هكذا وصفهم مداح المدينة في اعتزاز دافق لا يزال يستشعره بوغريبة، رغم الشعورين المتصارعين بخلده، بل إن الشعورين يتجمّعان في سؤال واحد، يتوقف عليه رحيله كله:" هل سيُستنطق؟! وهل سيُصغى إليه؟!"، وسمع بوغريبة كلمة "قف" دون أن يحدد موقع مصدرها، ولكن في نبرة ثقة بعيدا عن الزمجرة.

" عام الغلة"

ومسك الذي يليه بذراعه وتقدّم، لم يكن بوغريبة يميّز بين تنظيمات الثورة، ولذلك يجهل أهو بقسم أم بمنطقة أم بولاية.

"في جيش التحرير كاين المحافظ السياسي العاقل؛ وكاين اللي يعذّب الخونة والمرتدين" هو ذا التصنيف الذي اعتمده الشيخ المكي دائما، فأي الطرفين سيتولى أمر بوغريبة؟!

" هل سيستعملون التعذيب في استنطاقي؟"

سأل بوغريبة الجندي الماسك بذراعه، وضحك الرجل المتوسط القوام، وأصلح وضع بندقيته على ظهره وقال في وقار:

" أصدقهم القول فقط"

سائرين لا يزالان صوب تجويف صخري، يبدو أن صخرته فقدت إرادتها في البقاء بالكهف، أمام عنف السيول الموسمية التي جرفتها لتنتبذ من بقية الحجارة موقعا شبه منفرد. وخارجها انتصب عسكري بكامل بزته الشبيهة بملابس الصاعقة ورشاشه يتدلى قرابة صدره، هل هو المستنطق؟ لماذا يسارع بوغريبة إلى تقتيم الاحتمال؟ فلعله المحافظ السياسي "العاقل"، فالعقل أساس التفاهم، كان متجهما هزيل العود، طويل القامة، يضاعف من وسامته المتوسطة طول شاربيه:

"أأنت بوعلام العايدي، بوغريبة؟"

اللهجة صارمة ما في ذلك شك على بساطة السؤال.

" أجل يا سيدي"

وخلا به داخل دهليز الصخرة الشاردة.

" تفيد معلوماتنا أنك زرت الثكنة في هذه الأيام؟"

مباغتا كان وسريعا في أحاديثه، تناقض تبدّى لبوغريبة بين شكله الظاهر الهادئ وحزم الاستفسار.

" نعم"

" وفيم ذاك؟"

" في دعوة وجهت الي"

" حول؟"

وأصدقه بوغريبة الخبر بكامل جزئيات لقائه "بالرابلة"، دون أن يقاطعه أو يظهر ضجرا لطول التفاصيل، كل ما في الأمر أنه ابتسم حين أبلغه بوغريبة أن " الرابلة" قتلت ضابطا فرنسيا، وتسببت في اغتيال أخر برتبة نقيب.

" ولصالح من قتلت هذين الضابطين؟"

وانتصب شعر بوغريبة برأسه، فرأى الصدق هو الأخر مدعاة للشك:

" ألستم، ألستم، من جيش التحرير؟!!"

وقهقه المستنطق حتى دمعت عيناه هذه المرة، وقلب بوغريبة يواصل إبحاره.

" ومن نحن إذن؟ جيش رابع؟ أقصد من أمرها بتنفيذ العمليتين؟"

" آه رجال الثورة بضاحية المدينة"

" مدينة" ـــــ "؟"

" نعم"

وكتب اسم المدينة بلغة سي محمد كما يعرفها بوغريبة:

" لسوف نتحقق"

وداهمه إحساس بالخوف ثانية، آه لو تكون كاذبة الداعرة إذن، علق بوغريبة بسرعة وانتظر السؤال، وتنهد محدثه.

" فور عودتك من الثكنة زعمت أن الملازم دعاك ترغيبا في التجند بصفوف العدو، وأشفعت ذلك بكونك تحسن اللغة الأجنبية؟"

" الحقيقة"

وقاطعه.

" انتظر وحين اختليت إلى زميليك بالمبيت، ادعيت أن الدعوة إنما كان هدفَها لقاؤك بالرابلة، ففيم التناقض؟"

" ارتأيت أنه من سفاسف القول أن استعرض لقائي بالرابلة أمام شيوخ المصلى، لذلك افتعلت مسألة التجنيد"

" كان عليك أن تنفرد بمن تثق فيه منهم وينتهي الأمر"

" لم استشف المسألة إلا من منظار جد عادي"

والتمس بوغريبة في نفسه رغبة في البوح، فأخذ يحادث المستنطق بماضيه المهجري البعيد، في صورة مذكرات متقطعة الفصول، وأحسن الرجل الاستماع بدون تكلف فيما يبدو.

"آه إنك أجبت عن السؤال الموالي مسبقا"

وتسارعت حركات رموشه:

" حول ماذا؟"

" زياراتك الأسبوعية إلى الديوان"

وابتسم في طمأنينة:

" آه صحيح"

وعلق رجل التحقيق على كلام بوغريبة بقوله:

" صحيح أنه ماض مشرق، لكن ثق لو أن الأمير عبد القادر ذاته أساء إلى الحاضر ما عصمه ماضيه من نقمتنا "

وتنهد بوغريبة في مرارة كما لو أنه فوجئ بتعليق المحقق.

" الأهم من هذا أن أنظار الطابور ما لبثت أن حدقّت إلي، في حين كان ينبغي لها أن تحدّق بآخرين هم أقرب إلى دائرة الشبهة "

" أسماء المشبوهين عندنا، اطمئن"

وفي سره قرأ المحقق ما كان كتبه أثناء التحقيق "إلقاء القبض على بوغريبة أيام المهجر، بتهمة الانتماء إلى حركة استقلالية، وتفتيش منزل عشيقته "سوزان"، ثم إبعاده إلى الجزائر، وإلزامه بالتوقيع الأسبوعي لدى مصالح الدرك بالمدينة".

صراخ في خيمة السيناتور:

اختمر المتوقع لدى الشيخ عطاء الله، فلم يفاجأ بنقل بوغريبة إلى حيث يوجد الآن، بيد أن الذي ظل خارج الاحتمال، أن يُقتل الرجل من فوره كما أشاع الرومي ويعقوب بعد بلوغهما المحتشد، فالرومي شاهد المسلحين الثلاثة يتحلّقون حوله ويقتادونه إلى الجبل، وما أن اختفوا عن أنظاره حتى طرق أسماعه ما يشبه دمدمة رصاص!

ويعقوب حمّل مشهد إلقاء القبض من الوحشية ما لا يطاق، مما حدا بالشيخ معلى أن يصف مثل هذا بأنه لا يخرج عن مقدمة الإعدام في أبسط الفروض.

ولاكت الألسن طرائف بوغريبة في تشف حينا وفي شفقة مكتومة أحيانا، وأنست الفرحةُ حليمةَ هموم الحركي المعاكس، الذي أبان عن أنياب بات يحجبها وجود الشيخ المكي من قبل، فهو قد حادثها أثناء عودتها من خيمة الشيخ بوخلوة بل وأمسكها من الذراع، وهي تؤكد للجميع أن أظافرها قد أحدثت في عنقه تقاطعا كميسم البعير، أما هو فزعم للشيخ معلى أن حليمة بادلته كلاما، وجادل الشيخ معلى رجالا حاولوا إعلاء شأن عفتها لحظة المجابهة.

وانتهى الأمر بوعد من الشيخ بوخلوة بالشخوص غدا إلى " الديوان" رغبة في الاحتجاج، وقد كان عند وعده، فمع توهج الإشراق صعد الأكمة يرافقه الشيخ مبارك، وقريبا من الديوان حيّاهما الحركي عبد الصابر مداعبا عنان جواده الكميت، ودلفا إلى قاعة خارجية، مستغربين سرعة الرغبة في استقبالهما من قبل " الضابط" هذه المرة.

" صباح الخير سيدي الحاكم"

" صباح "الكيغ"

وتقدم الحركي ذو الطاقم الذهبي بإشارة من " الضابط"، ليتولى ما يشبه القيام بترجمة فورية.

" فعلت حسنا إذ زرتنا يا شيخ بوخلوة."

" إنما جئناك في شأن الــ"

وأشار عليه بالسكوت.

" بل إنني أحتاج إليك في أكثر من شأن لو تدري"

وأشعل غليونه في تريث:

" أين راعيك بوعلام العايدي؟ لم يستظهر رخصة الرعي لحراس السياج البارحة؛ إنه أيضا لم يوقع على السجل الاجرائي بالديوان كما عودنا أسبوعيا؟؟!"

وكما لو أن المفاجأة أذهلته:

" لقد استدعي من طرف ثكنة الجيش، ولا أدري ما حلّ به بعد ذلك؟"

وضحك " الضابط" ضحكة يدركها الشيوخ بعمق:

" أمُضاف هو إلى تشكيلاتكم إلى هذا الحد؟"

وخيّم صمت مؤقت، تتبّع فيه الحركي رموش " الضابط" المتذبذبة وأردف:

" بمعزل عن حكاية الراعي، لي معك شأن"

وباستدراك عفوي:

"آهـ. تعني قضية الاستقالة؟!"

وفي اضطراب هذه المرة:

" ولا هذا أيضا"

وسكت الشيخ بوخلوة بعد أن بادل مرافقه نظرة فارغة من أي مضمون.

" هل تعتقد أن الشيخ المكي كان يخفي عنك نشاطه الهدّام؟"

" أي نشاط؟!"

" تسألني؟!"

رفع سماعة الهاتف وحادث شخصا ما بلغة غير مفهومة لدى الشيخين، ومرّت هنيهة ارتباك صامت، وضع خلالها الشيخ بوخلوة سبابته على التقاء شفتيه بشكل عمودي ساكن، وأجفله بروز عسكريين أديا التحية بشكل رمزي مستعجل.

انقاد الكوراط الأول لقوة جذبهما إلى أن أخفاه عن أنظار الشيخ مبارك منعطفُ الرواق، فاكتسح بمفرده ضلاع المنحدر الصخري في أوبة إلى المحتشد وكأنه يكتم صيحة.

تزاحمت مجريات الطابور إلى حد درجة التخمة، وتشرّبت أنبأ اعتقال الشيخ بوخلوة ما سبقها من طوارئ، كان حجم الفاجعة قد طمى بشكل هرمي على مجرد التأمل فيما حدث، بحيث لم يمهل حتى أولئك الذين يتعاطون مداعبة الحاسة السادسة في سماحة، على تصويب قذائف الارتياب نحو الشيخ مبارك، أمّا لدى أخرين فما زالت رائحة بوغريبة تعبق في كل جديد يصدر عن القلعة.

قد لا يستجمع غياب بوغريبة محصّلة الإدانة، ولكنه كان فاتحة الاستنطاق على كل حال، ومعنى هذا أن " الضابط" قد تفطن إلى عملية المقايضة التي حصلت بينه وبين القسم، أوغل الشيخ معلى في التوسع داخل هذا المنفذ، لا يروم في هوامش الأحداث مدعاة للفزع أو الاحتجاج ضد أحد، إذ ما الحافز على ذلك وقد أعلنت الساحة عن خلوها من أدنى الطامعين في المنافسة؟ ولكم خدمته

الساعات القليلة الموالية؛ وهو يتسلم صفة قائد للطابور "21" في إعلان رسمي باجتماع الأعيان.

وعلى عجل تلقى التهاني، وانتظم حفل نسائي تحت إلحاح زوجه رقية، قاطعته زوجتا الشيخين بوخلوة والمكي لأسباب لم تفصحا عنها في حينها، وطلبت حليمة إلى بنت النمر أن ترفض الدعوة بإيعاز من والدتها، ولاحظت العجوز زهرة أن قائد الطابور يعاود سؤاله عن ابنها جمال فأجفلها التكرار، وزار الحركي العاشق خيمة الحفل فأربك بذلك جمعا أجبرته المناسبة على الحضور، وتوجس الشيخ معلى في عيني الحركي طارئا وهو يدعوه للانفراد به:

" أحتمل زيارة الضابط وحرمه"

وعقد حاجبيه في جذل غامض:

" تعتقد أم ؟!"

" هو ذا كل ما عندي"

وأسرع إلى زوجه بالخبر، فتساءلت يدفعها البشر، عن تمنّع حليمة من أن ترتبط بالحركي العاشق؟

" مذ أن عرفناه لم نعرف إلا الخير"

أمام الانعكاس غير المنتظر الذي خلفته مسألة " الحسناوات الخمس"، على حضور المرأة في الأروقة شبه العامة، تضاعفت نقاط الحراسة على امتداد السياج الشائك، وأسندت إلى فرق عسكرية دائمة، مهمة الجوس خلال الطوابير ليلا، الأمر الذي كاد أن يحسر دور المكتب النفساني "الصاص" على خريطة الأهالي، وهي وضعية لم يكن " الضابط" ليتحلى بحلم ازاءها، فمنح الحركَى مجالا أوسع في صيانة أمن الدوار ليلا.

جاء الإجراء بمثابة إنعام على الحركي العاشق، سيما وأنه أعقب اعتقال الشيخ المكي بأسبوعين كاملين، كانت معاكسات النهار

خلالهما تبدو مستهجنة وفارغة من الجدوى، وهامس مبارك الشيخ عطاء الله:

" ليس في إمكاننا إشعار القسم بمترديات الوضع إلا بواسطة يعقوب!"

" أجل، لقد أحكم الحصار فور أن اتضحت عمالة الشيخ معلى"

" والتموين؟"

" هو فقط ما يشغل بالي"

لم يسارع الحركي العاشق إلى مغادرة الدوار حين أعلنت الشمس عن نفاذ شحنتها الضوئية، فالفرسان من زملائه والراجلين على حد سواء يتناثرون خارج الخيم، والجيش يقيم بخوذاته الرمادية جدارا خلف السياج، وداخل هذا الوسط تستيقظ رغبة المداعبة من جديد.

" حليمة؟!"

مصدر قوتها على الصمود أين يكمن؟! والصمود حماقة حين يتعلق الأمر بواحد في مناعة الحركي العاشق.

وحزّ في الوجدان البكر بدوره أن يُحاصر لمجرد أنه يقاوم بطريقته الخاصة، وهل من طعنة أشد على القلب البشري أكثر من تلك التي يتلقاها من جنس ما يناهضه؟، وسرحت بخيالها نحو "جمال" الذي باتت تطارد لفتة منه في كل ظلام، فرفض الخفقان وأخلى السبيل إلى قلوب تنعق بما يشبه الانتحار.

ولامست سمعها قصبةُ الرومي تختلس الحبو عبر أشباح الخيم الجاثمة، الرومي صار ابن المناسبة، دخل الآتي، تعوّد لعبة الفقدان، كانت تعتقد أن موت بوغريبة، وبالصورة التي عرفها الدوار ستضطره إلى اعتماد فترة حداد، غير أن ما يخترق أذنيها يدعم حقيقة أخرى تتوازى فيها المرارة ونقيضها.

حلّق وجدانها مع نوتات القصبة وهي تستقرئ ألحانا غير قابلة للحفظ لروعة سحرها، وخُيّل إليها أن سجاف الخيمة قد اهتز هزة غير تلك التي يحدثها نسيم منتصف الليل عادة، ولكن عذوبة الأنغام تشرّبت وشوشة الريح ذاتها، وأخضعت خفقان السجاف إلى سمفونية الموال الصامت.

ترى من يتلقف حليمة في لحظة الحضور الرومانسي هذه؟! أي الأحايين يستبيها؟ بياض الماضي أم عقم الحاضر؟ من وماذا تريد هذه المتنسكة خلف تلغّز غايتها؟

وأدخلها التفكير في جمال جاذبية " الكاعب"، ترى ما الذي حدث له معها؟! هل رحلت برحيله يشدها اكتمال النسق؟ وارتعدت ثم أصخت بكل حواسها، كانت الحركة السابقة قد أعيدت بشكل سافر هذه المرة، وغلب على روعها أن أحدا ما يكون قد ولج الخيمة في اندفاع شبه قوي، فأحسّت بما يشبه الدبيب يسري في عروقها، وضغطت على ذراع والدتها الممدودة في استسلام، غير أن هذه تعالى شخيرها بشكل مفزع.

" من هناك؟!"

هل نطقت فعلا ؟! أم أنها تعتزم النطق؟ وباغتها انقضاض هيكل ما، شعرت بجسمها يذوب كلية تحت وطأته، صرخت بأقصى صورة موجعة، وقفزت أمها مذعورة:

" حليمة ما بك؟!"

وبكت الفتاة في تشنّج مؤلم:

" الخ ب ي ث"

وتفطنت الوالدة تلفّ أعصابها صدمة كهربائية، فصرخت دون أن تُفزع الصرخة أحدا:

" هل تمكن منك؟!"

وانساقت إلى البكاء بكل قوة صوتها، حاولت أن تجلس دون أن يزايلها التشنج، وتمددت على ركبة والدتها والشهيق يخلخل صوتها.

" لم تردّي على سؤالي؟"

" أغتصبتُ أ غـ تــ صــ بــ تُــ "

وأحكمت يديها على جدائل شعرها في محاولة لاقتلاعه بصورة نهائية، ثم اهتدت إلى تمزيق وجنتيها في عصبية مميتة بأظافرها،

" فعلها إذن؟"

رددت الوالدة مسعودة في ذل، وأقامت نحيبا إلى جانب ابنتها، وأردفت مسعودة:

" كان عليّ أن أحترز لمثل هذا قبل وقوعه"

في هذه الأثناء، برز الشيخ معلى تلفه العتمة، وقد وضع عمامته على رأسه في غير نظام، وفهمت مسعودة أن عبد الصابر ـ وهو يقوم بمأموريته في المحتشد ـ قد سمع صرخات متتالية فأيقظ قائد الطابور، ولولا عبد الصابر لكان القائد قد ذهب ضحية حظر التجول:

" أمتأكدة أنت من أنه هو؟!"

وأشاحت حليمة بوجهها عن سؤاله، فالسؤال لا يحمل براءة أحد، ولكنه يومئ إلى ما يضاعف نزيف الجرح الدامي، سبقتها مسعودة إلى الجواب:

" شبابنا كله مقيّد كالدجاج بحظر التجول، فمن يكون غيره؟"

" لعله حركي أخر أو عسكري؟"

وقال عبد الصابر وقد أخفى الظلام سحنته المقزمة:

" سنشعر الضابط إذا كان الغد"

وتأوهت مسعودة في ذعر:

" لتعم الفضيحة؟! أو ليحيلوها إلى ماخور بدعوى أنها "

وداهمها البكاء فاقتطع بقية كلماتها.

" انظر إليها إن الاغماء يعاودها بين حين وحين"

" ضعي قطرات من العطر في منخريها"

نصح الشيخ معلى دون أن يجلس.

" آه صحيح سوف أناولها من عطر عرسها"

القاتل ذاته ـ كما يرى عبد الصابر ـ تبكيه آثار الجريمة حين تستجمع مشاهد قسوة كهذه، وقائد الطابور في هذه اللحظات لا يدري أي الشخصين أقرب إلى رأفته، الفاعل أم حليمة ذات الشرف الصريع؟ أي الشعورين يمخر خلده أكثر؟ لم تستضف عيناه تبللا كما توقعت مسعودة، ولم يشحن التشفي جرسه الصوتي، كان بين بين، يفترسه الازدواج كعادته.

والحق أن وجوم عبد الصابر ينم عن دهشة أكثر اتّضاحا، وما تجهله مسعودة أن القضية لا علاقة لها إطلاقا بذلك التواتر الذي يفرق بدقة بين القبعة الرسمية، وما تحمله العمامة الرسمية من دفء عادة، وأن القبعة حتى وهي تتفولذ لم تعلن استبدال أصلها القماشي بالحديد.

ليست حليمة وحدها تسترجع ما حدث في صورة منام أو أحلام يقظة، بل إن والدتها تناقش المأساة من زاويتها الخاصة، استأذن الشيخ معلى في الانصراف، يتبعه عبد الصابر كطبيبين حضرا بعد فوات الأوان، وسكنت سجوف الخيمة تتعهد الجرح بالكتمان.

الرومي ما يفتأ ينثر أحلامه من بعيد في نظام تفتقده سرعان ما تلتصق بخيمة السيناتور، والعينان اللتان ألهمتا صدور السهوبيين أعواما تطفئ لهبهما المتصابي حدةُ الذلة، وترتعش الشفتان الزجاجيتا السمك رغبة في جرعة ماء، وفي لهف محموم تحتضنان الكوب السفاوي، وشدة الظمأ تبخس الماء طعم مذاقه.

الأوراك تردد وحشية الطعنة في ذعر، والشعر المخملي الغدائر يرفض الانتساب إلى منابته الأولى، وحليمة تئن تحت فاجعة يخفيها الليل، في صبر تشفق على نفسها من انبلاج الصباح، لا لشيء، سوى لأنه أول يوم في حياة حليمة أخرى مغايرة ، صحيح أنها تجهل فكرة تناسخ الأرواح، غير أن تفكيرها الآن يشارف تخوم هذه الفكرة كما لو أنها من مبتدعاته.، وظل يمخرها السؤال:

" هل سيستمر الدوار في إعجابه بها؟؟!!"

وبكت للمرة الألف بغير طائل، وللمرة الأولى ترسّخ في ذهنها أنها أخطأت حين ركبت رأسها في مجابهة الحركي، فلو أنها تنازلت عن مناطق جانبية، ما افتقدت الحصن المنيع دفعة واحدة؛ وفي مجانية قاتلة.

هل ما نصونه كله نتخلى عنه كله صاغرين في لحظة واحدة؟! وبالطريقة ذاتها؟

ولكن الإشاعة دائما تحمل نفس القدرة على التفجير، تعلّق الأمر بالجانبي أو بالأساسي، فمجرد مسكها من ذراعها أقام الطابور وأقعده، فكيف بما يحدث؟ وأجهض بزوغ الشمس خواطرها المشتتة، فنهضت وكأنها في طور نقاهة منذ حول تقضّى، محاولة ترتيب هندامها بما يزيل الشبهة، أو يخفف من تأكدها على الأقل.

كانت تنظر إلى موقع استشهاد شرفها في إجفال، في إشفاق، في بلاهة، باكية يلفّعها الصمت الثقيل، إن هذا الموقع يمثل بالنسبة

إليها ما يمثله قبر ذلك الذي يحتضر في الخلاء، وهو لايزال يرقب عملية الحفر، المكان يأخذ صفة القبر حين تصدر فيه أحداث تشبه الموت أو تتجاوزه، منكباها يستشعران قبضة قوية تعتصرهما، آه لو كانت بالبادية على أيام الطلاقة، إذن لطلبت إلى والدتها الرحيل فورا، ليتوارى هذا المكان المفجع ولكن؟!

وأذاعت أولى محطات الخيم النبأ مذيّلا بأسطورة مغرية، ووفدت الواشمة تستجدي لبنا كعادتها مع الصباح، وحاولت حليمة أن تستعيد اعتياديتها الفقيدة، وشخّصت مسعودة مصدر آلامها، وسهومها وحزنها في اعتقال الشيخ المكي، وكأنها تلفت نظر حليمة إلى هذا المخرج.

" ألحظُ آثار مأتم عندكم؟!"

" أقمنا شبه نحيب البارحة، إن وضعنا ليُبكي حقا في غياب الشيخ المكي، تصوري لقد ألمّ بحليمة وعك في منتصف الليل، فخشيت أن تموت في غياب والدها، إنه ظرف مؤلم ذلك الذي تمر به عائلة بدون سيدها"

كلمة الأم الشبيهة بالثكلى، تفرست فيها كل واحدة بمنظورها الخاص، فالواشمة حزّ في نفسها ألا تطيق الناس مبيتا بدون صاحب الخيمة وقد افتقدته هي نهائيا ومنذ أعوام، أما حليمة فقد تمنت لو أنها فعلا ماتت في غياب والدها كما ذكرت الأم، وإذن لكان ذلك في نظرها أهنأ للضمير والوجدان معا

والغريب أنه رغم الاقتناع الذي أبدته الواشمة بتعاليل مسعودة،

فقد كانت خيمة الشيخ معلى بعد قليل من انصرافها، أول محطة تذيع النبأ في جنائزية قاتلة، مذيلة بأسطورية فاتحة للشهية في الكلام؛ وأقسمت رقية في جمع نسائي بسبحة الشيخ معلى؛ ان وجه الفتاة يعكس أعراض مرحلة إخصاب سرعان ما تتكشف عن انتفاخ بطن.

" عيناها تنمّان عن ذلك!!"

" تواشيح اصفرار تعتصر وجنتيها"

" قيل إنها تقابله بالعراء منذ سنة!"

" ثم تتفكّه بـــــ"الرابلة".

وانزوت زينب كقطة صغيرة بزاوية الجمع، الذي يتناوش صديقة العمر في غير رأفة، ولم تزد على أن بكت في سرها من أجل حليمة.

أحدثت نعوت الخالة رقية في حالة حليمة تصدّعا واضحا، وتلقفتها أذان مسعودة في حس الطعنات، فوجهت نحو حليمة استنطاقا أوليا يبدو أن عنوانه ملف يخص ما قبل البارحة.

" ولكنني دائما أنام بين ذراعيك كالرضيع؟!"

ورغم الثقة الأكيدة التي تتمتع بها حليمة لدى والدتها، يبدو

أن البارحة لم تقتصر على زمنها، بل يسندها الماضي بارتجاع ما،

" وماذا تمثل المرأة أمام ضعفها الفطري؟!"

قالت مسعودة كما لو أنها تقر حقيقة لا تحتاج إلى إثبات.

التجريح الجمعي كان مبيدا فعلا، والحيلة أمامه يزدريها واقع الأحداث ومصداقية الفاجعة، إذ ما جدوى أن نُظهر الإنكار إذا كانت ذاتيتنا غارقة في التصديق؟! والتمست مسعودة طريقها إلى بنت النمر، علها تنتشل نفسها من بؤرة الحمأة التي تبتلع أسرة عُرف عنها أنها لا تطأ حتى الأرض اليابسة.

" أريدك أن تنتهري " رقية" زوج الشيخ معلى، هذه المعتوهة التي تشن علينا حملات بدون سابق عداء واضح"

" ولكنها من تدرين تقتل الميت وتسير في جنازته، سوف تقسم بسبحة الشيخ معلى".

" الشيخ معلى؟! الخبيث تعهد بكتمان المأساة ثم"

وسكتت لتضيف:

" حليمة دائما تنظر إليك كأم ثانية"

وفور أن بلغت بنت النمر خيمة قائد الطابور، تعالت ولولوة في صورة مواجهة مكشوفة بالألسن قد تصل حد الأيدي.

" حليمة تجلّك يا خالتي رقية، فلتكن والدتها من تشاء لكن الأمر يتعلق بمستقبلها"

" مستقبلها؟!! لن يكون إلا بجانب الرابلة!"

وعلى عجل أردفت:

" هل نتستر على المُنكر؟! ثم إنني لا أنعتهما إلا بما تصنعان؟!"

وتحركت بنت النمر في مجلسها، وكأنها تعلن عن إخفاق الوساطة:

" أنتما وشأنكما"

" أبلغي حليمة أن عمها القائد قرر الاحتجاج لدى الضابط خلال الاجتماع القادم"

وأكدت يأسها في صمت وانصرفت.

استرجعت حليمة ما بلغها من لاذع القول الذي صدر عن نساء الخيم المجاورة، واستبكت هيئتها الرثة زينب القابعة إلى جانبها في صمت مقبري، اخترقته مسعودة بقولها:

" ثقي أن اللـــــه قادر على الانتقام"

اللـــــه فعلا قادر على الانتقام من يشك في هذا؟ ولكنها تريد انتقاما آنيا وشديدا، ينسيها نزيف الجرحين الجسدي والنفساني معا، ما أصعب أن يستشعر الإنسان جرحين في وقت واحد، وحذرتها زينب وقد قامت تلتمس جذاءها:

" احذري نقمة ذاتك، أتركي الأمر لله"

" يشفع لي أنني أديم الاعتقاد بجدواها"

" لست أسوأ حظا من الرابلة ومع ذلك لم تفعل"

" شأنها يختلف"

" تذكري نصيحتي"

وتبسمت على مضض، زينب المسكينة السذجة تحذرها من الانتحار، ناسية أن الانتحار إنما يخص الأحياء ولا شأن له بالأموات، إنه يخص الأحياء وهي لم تصر في عدادهم، والانتحار نهاية وهي قد انتهت فما حاجتها إليه؟

انتهت، هكذا خُيل لزينب وهي تنصحها، وخيالها يستحضر أيام " العارفة" (19) حين طالبتها بالإشفاق عن فتيان الدوار، وانتهت في نظر مسعودة، فأي دف سيُضرب لواحدة أصبحت ثيبا بدون زواج سابق؟ ألم تُطرد فتيات في الساعات الأولى لزواجهن لهذا السبب وحده؟!، انتهت. نطق العُرف مُبعدا رأفة الدين، وفي مفترق الطريقين تأرجح سي محمد، انتهت.

وكعادته عقل الليل بحظره نساء حاولن أن يعدنها، فانصرفت إلى مضجعها مبكرا مُضربة عن الطعام، وقد أنهك السهوم والبكاء ملامحها. تناومت بعيدا من والدتها لأول مرة، إذ ماذا تبقّى لتحرس عليه؟

وأيقنت أن الرومي قد كسر قصبتيه الخماسي والثلاثي معا كما أبلغها، بحيث لم تصطحب أنغامه حفيف النسيم المتجول ليلا في طلاقة.

" آه الرومي؟!"

لقد ماتتا معا، مريم وهي، فلماذا فضّل العزف في رثاء مريم

واستكن إلى الصمت بعد وفاة حليمة؟! أم أنه يعتقد بحياتها وقد أسرع بالإعلان عن موت بوغريبة؟

تناصف الليل أو يكاد ورُفعت أسمال الخيمة في طواعية فأدركت حليمة أنه دخل، فسارعت بالقول وكأنها تخشى انفلات المبادرة:

" لسوف يرتوي من صدرك هذا الخنجر"

ذاك ما تمناه السيناتور حين شهر هذا الخنجر بالذات في وجه الحركي مرتين ولكن.

" أُطلق عليّ النار أيها الخائن، ماذا تنتظر لتقتلني؟"

ونبرت مسعودة في يأس:

" ألا تستحي؟!"

وقال الحركي العاشق مهددا:

" بل سأطلق النار على والدتك"

وقرقع بندقيته إمعانا في التهديد، وفي وهن سقط الخنجر من أصابعها:

" لا تفعل"

وشرقت الوالدة ببكاء نصف مكبوت، مما شجّعه على القول:

" حليمة؟!"

" لا تخاطبني"

" إنك فاتنة"

وتنهدت في صعوبة:

" ليتني كنت زنجية شوهاء"

" ولكنني أحبك"

" حب الخونة طبعا"

" اخرسي"

خيل إليها أنها فرصة العمر في الانتقام بالسبل الممكنة، سبل السخرية:

" ستعرف خطورة ما تصنع بي"

" من تعنين؟! القسم؟! يجب عليهم أن يشتروا أجنحة ليجتازوا السياج الفولاذي الملتهب"

وبكت.

" ولكنني سوف أقتلك، أطلق النار على أمي إن شئت سأقتلك"

" هل جننت؟"

" أحذرك من العودة إلى ما نحن فيه الآن أحذرك"

باكرا استيقظت لتدرك إنها نامت البارحة، نامت على تعاريج العباب كمركب تحاصره العواصف من كل صوب، ولم يخطر ببالها أن النوم من ليلتها الليلاء قد طلّق مسعودة ثلاثا.

دخلت لعبة السجاف الليلي طورا مزمنا، تجد في ظلام الليل أقوى حوافزها، فاضطلعت كل خيمة بهموم فتاتها، وأفزع النسيم منام العذارى، وأقلعت الأرامل عن المبيت وحيدات بانضمامهن مع المغيب إلى خيم، تمنع كثرةُ أفرادها ألعاب السجوف، فبنت النمر

مثلا لم يمنعها فضولها من أن تتناول عشاءها باستمرار، في خيمة الشيخ عطاء الله حيث تقيم ليلا.

وأدهش الأرامل أمر الواشمة، إنها الوحيدة التي لم تتوجس من انفرادها المفرد الذي اقتضاه السهر على سلامة الدجاج، فالعسكر لا يؤتمن سيما وأن حوادث سطو على الدواجن قد سجلت في طوابير متاخمة، فهل يُنشد الأمان في الحياد؟

وقرّر مراد أن يموت عند وعده.

" لا تجهر لكيلا يسمعك الشيخ معلى العميل"

" زينب؟ أحقا أنام و"

" لسوف تمكث في جوف القلعة"

" وليكن؟"

" وأنا؟!سيفعل بي أخرون ما فعل هو بحليمة!"

وأفزعه المشهد حين رسمه خياله بسرعة برق.

" سوف أطلب إلى عبد الصابر إشعار " الضابط".

وقريبا منه صرخت:

" ولا هذه أيضا سينقمون منك"

" سأطلب إلى الخبيث أن يتزوّجها"

وقلبت شفتيها في استياء ممض:

" وما الفرق بعد الذي حدث؟"

واقتربت منه أكثر:

" مراد؟!"

وبكت زينب، اللامبالية السادرة عن هموم الأخرين، تبكي الآن وبالقرب من خطيبها:

" ما بك؟"

" أسرت إليّ حليمة أنها حبلى"

وبانفعال شديد:

" حبلى؟!! لم تقف اللعنة التي حلّت بها عند حد"

"إنها دائمة البكاء، حليمة التي لم تعرف البكاء حتى أيام موت سالم"

" سوف أجبره على الزواج منها إذن"

وفي يأس دافق:

" تلزمه؟!"

بات ما يحدث في خيمة السيناتور كل ليلة، يبعث في نفس الشيخ معلى شعورا غامضا من الانتشاء بالظفر أحيانا، تقاطعه موجات من الندم، فالموقف زاد عن حده، تجاوز ما رُسم له، وعلى الرغم من شُح الاخبار التي تتلقاها زوجه رقية حول حليمة، كان يجهل المصدر المعلوماتي الذي يبدو أنه يطلعها على مأسي الفتاة أولا بأول، فترثي رقية لقيم الطابور وأخلاقياته في تفجع، مؤكدة للجميع أن حليمة لم تك لتُرغم على ما هي تمارسه على رؤوس الأشهاد.

" العُهر توأم الجمال"

هكذا ساير الشيخ معلى آراءها في حليمة.

" وما دمتُ عفيفة فهل يعني هذا أنني دميمة؟!"

وتنتزع ضحكاته مرضاتها في تعب:

" جيلنا يختلف، يختلف يا رقية"

وودّ لهذا السيل من المعلومات الساخنة المنتظمة أن يتلمس ظروفا وأشياء ذات نفع، فحليمة صارت إلى أبعد مما أراد، جثة عاجزة عن الإيلام، تمارس الدعارة في تنويم، بل من يدري؟ ربما تفتحت رغبتها على ما يُصنع بها؛ فأصبحت لا تجد نفسها إلا فيه، فحين تفرض علينا الحياة قيمها، ليس في وسعنا إلا أن نطوي قيمنا الخاصة، ونقرّها على ما تعرضه علينا صاغرين.

وانعقدت دهشة الشيخ معلى، وزوجه تجيب عن سؤاله:

" إنها الواشمة، ولقد أوصيتُ الحركَى بعدم التعرض لخيمتها"

" وهل يمكن تسخيرها فيما هو أهم؟"

وقاطعته ضاحكة:

" لكم انتظرتُ منك هذا السؤال"

الواشمة؟ لا ينمّ وضعها ومنظرها عن أي لون من ألوان الخطورة، فالكل ينظر إليها من باب الإحسان، ولئن كان الدجاج يضطرها إلى المبيت بخيمتها، عكس الأخريات من الأرامل اللائي لا مدافع عنهن في حالة خفقان السجاف ليلا، فإن للقمة العيش شروطها داخل المحتشد، فأحدى العناز الخمس التصقت بخيوط السياح المكهرب، واستحالت سوادا بالأمس القريب.

وإحدى النعجتين اللتين أهداهما إياها الشيخ بوخلوة أيام وفاة سالم، افترسها ذئب صغير لم يتمرن بعد على شهية العظام البشرية في رؤوس الآكام، والبيْض ذاته من يشتريه غير العسكر وقادة الطوابير والحركى؟ أو زوجة الضابط التي لم تكن ضمن زبونات الواشمة مع شديد الأسف؟

أمام كل هذا، أمام هذا الخريف الشامل، ظلت خيمة الشيخ معلى وحدها تستنبت الفواكه في غير أوانها، كحديقة خارج الجرم الأرضي.

وأجهض مراد حديث الزوجين الوفيين، وكلّم الشيخ معلى على عجل، وفي صرامة لم يعهدها فيه:

" زوّجه منها إذن"

وقهقه قائد الطابور:

" أتخالني ولي أمره؟!"

" فلتكن ولي أمرها هي، هي المتضررة، إن ما يجري ليُسيء إليك أنت قبلنا ككبير دوار"

" كبير دوار؟!! وهل تأكدتم من هذه الحقيقة الآن؟ إنكم لا تؤمنون إلا تحت السيف"

وأضاف:

" ورأي والدها؟"

" لن يُعقّب على أمر نقرّه جماعيا في غيابه"

وتنهد القائد في إكراه:

" لسوف أستعطفه فهو شاب كل سوالبه أنه جريء وأحمق"

وهمس مراد في تثاقل وحنق:

" تستعطفه؟!"

وكأنه استفز غضبه المكبوت:

" وهل في حوزتنا أن نفعل ما هو أجدى؟!"

ونكس مراد رأسه في مسكنة:

" صدقت، حاول يا شيخ معلى"

وتساءلت (مدام) رقية كما أسمت نفسها مؤخرا:

" وموقفها؟!"

وتجاهلا السؤال في اتفاق غير معلن، ولكم كانا محقين في تجاهلهما، فهل تُسأل الجثة عن أي المواقع أنسب لدفنها؟!

وكان الطفل بوداود قبل حين قد أقبل إلى خيمة الشيخ معلى يلتمس أعواد كبريت لوالدته بنت النمر، فأبلغها ذبذبات صوتية من حوار مراد مع الشيخ معلى، وحذقت الموضوع لفطنتها، وزفرت قائلة:

" أهي رأفة بحليمة أم إمعان في إذلالها؟!"

وتم زواج عرفي ليُعطي جنين الستة أشهر صفة ما، ولم يستدع الأمر ترخيصا من الضابط أو حفلا كما توقع الأطفال، كل ما هنالك زيارات فردية وثنائية، مقتصرة على تقديم التهاني بشكل متحفظ، كانت تتلقاها حليمة في بكاء دائم وفي هندام رث، وبقسمات ينخرها الحداد، وحليمة من ذلك الطراز البشري الذي لا تزيده المسكنة إلا شعورا بالهوان قاتلا.

ولكم اندهشت الحاضرات حين امتنعت حليمة عن تخضيب يديها بالحناء، وفقدت زينب حيلة المحاولة، دون ان يجدي التضرع:

" لسوف أخضّبهما بسواد القدر يا زينب"

أما الحركي فقد كان يتلقى التهاني تأكيدا للرجولة، فالرجل هو فقط من يحقق حلمه ويعرف كيف يسعى إليه، غير أنه رغم تعاطيه الفطنة، لم ينتبه إلى السكون الذي عم خندق الرومي أيام الزفاف ولياليها.

والرومي لم يتمن لأحد الموت كما تمناه لحليمة قبل هذا الزواج، ولكنها الحياة كانت أسبق إلى تقتيم صورة هذا الكائن الذي طالما اهتزت لرؤيته القلوب، ولم يدرك الرومي أنه حين يكون الموت أنسب إلى كائن ما، ترفض الحياة أن تخلي وصايتها عليه لتنفّذ فيه حكمها.

تقضت أيام الزفاف، وصار الحركي العاشق رجل الخيمة، وكاد المحتشد أن يتناسى السيناتور، تحت زخم المصطلحات الجديدة؛ خيمة الحركي، زوجة الحركي.

ورأى الشيخ عطاء الله موقعه سلبيا إلى أبعد حد إزاء ما حدث، ولكن كان يتساءل دائما:

" كيف؟"

كل ما في الأمر أنه هو ومبارك يعبّران عن سخطيهما كلما التقيا، وأحسا أنهما افتقدا سي محمد فعلا في هذا الظرف بالذات، فسي محمد حين لا يعطيهما الحل، يلهمهما حسن الانتظار على الأقل.

استبدل العام جلده، والشيخ السيناتور وآخرون يحجلون في أغلال القلعة، فالقلعة نهائية الأحكام ، والجلاّد(جوليا) يمارس وظائف وزير العدل في قرية المحتشد الغافي، والحركى يستميلون الأهالي؛ فقد أصبحوا مصدر خدمات ليس في إمكان غير ديوان الأهالي أن يقدمها ، توزيع الكساء والدقيق أحيانا، ونقل ضحايا التعذيب إلى ممرضية القرية، والأكثر من كل هذا أنهم ينقدون من يقّدم وشاية فورا، بل إن رئيس الحركى صاحب الطاقم الذهبي، قد تنازل فأعار جواده إلى الشيخ معلى، حين استدعاه ضابط شؤون الأهالي، وفضّل أن يقطع المسافة بين المحتشد والقلعة راجلا.

وشعرت حليمة بانقطاع زوجها عنها بشكل محير، فهو لا يمر بخيمتها إلا نصف مرة بالأسبوع، بل لقد تقضت أسابيع والحركي العاشق لا يدنو من طابور حليمة، وأشيع أن مركز حراسته قد تحول إلى طابور أخر، ولهذه التعلات أمعن في الغياب، كان ذلك مذ شجار نشب بينهما حول تسمية الطفل.

استعادت حليمة وقائعها مع الحركي العاشق، وابتسمت لسبب ما، ما يهمها فيما حدث، أنها أضربت عن الجدل كعادتها مصرة على أن تسمي ولدها جمال أو الناصر، لم تنثن رغم أن الحركي العاشق

قاطع حفل العقيقة الذي أقامته الخالة مسعودة نيابة عنه، وطعنت حليمة قذائف الخالات، زهرة، الواشمة، بنت النمر والزانة:

" لقيط وابن حركي ويأخذ اسم فحل الدوار؟!!"

زينب تتلقى هذه المتفجرات وكأنها لا تمت بصلة إلى صديقة العمر حليمة، إذ ما علاقة حليمة بهذه التي تحيق بها كل ألوان اللعنات تباعا؟! وبكت حليمة إلى جانب زينب بصدق كطفلة غُرّر بها.

عيون حليمة تحولت فعلا إلى ينابيع منهمرة في ظل الظرف الجديد، وقد كانت أشبه بجلمود عراء، أحقا ينبجس الماء من صخر بهذه السهولة؟ وتذكرت زينب المناحة التي أقامها الدوار حزنا على سالم، وموقف حليمة من البكاء كظاهرة غريبة عنها، هل أننا لا نتعاطى التجلد، إلا حين تأخذ المآسي طريقها إلى غيرنا؟!

واسترجعت زينب توهج خدي حليمة، وحيويتها اللذين تغنى بهما الأطفال أيام " العارفة "، فراعها ما يخيم على حدقاتها من ذبول مدمر، وتذكرت:

" أنظر إنها كالعروس"

" إنها تتزين بسخاب أمي"

حين تتأوب بها الذاكرة إلى أيام تقضت، فإنما لتؤكد مدى انتسابها اليوم إلى الموت على حساب الحياة، إنه الأقرب، وتلك حقيقة يدركها فقط أناس دخلوا طور مقدماته.

" بلغني أنه يراود فتاة أخرى بالطابور الثامن"

واستبدل شيء ما في صدرها مواقعه، ولاحق اصفرار مباغت مخلفات بياضها غير المشعّ، فأردفت زينب:

" وتغارين عليه؟!"

وضحكت في سخرية معتادة منذ أيام الكرامة:

" أغار ؟! ولكن من أنبأك؟"

" مراد. شريطة ألا أخبرك"

وقلبت شفتيها في احتقار:

" وما الضير في إخباري بذلك؟"

وتنهدت زينب:

" القلب لحمة يا حليمة"

" القلب؟! إنه عضلة مقيتة، عضو لعين وظيفته ضخ البكاء فقط"

وغيرت زينب مسار الحديث إشفاقا على صديقة العمر:

" هل تعتزمون إرسال الحمار مع مراد للاحتطاب غدا؟"

وقالت والدة حليمة التي كانت تؤدي وردها بسبحة دقيقة:

" أجل لقد نفذ ما عندنا من حطب يا زينب"

ومع الصباح أذاعت حليمة بشائرها، ولاحظ الجميع أن البسمة قد عاودت الجلوس على شفتيها مذ غادرت كوخ العرّاف " عجينة"، ورددت همساته في أكثر من حلقة:

" لمَ تتسرعين البطيء؟!"

وقاطعه الهذيان، تناوم، اهتزت رموشه في ارتجاف مخيف، عاوده الصحو:

" هل هو جمال يا جد؟"

وسكت مُطيلا، وأصابعه تناقش الدقيق المتناثر على جنبات الطبق السعفاوي الصغير:

" تلك حكاية أخرى"

" تعني الكاعب؟"

وهزّ رأسه مصدقا، وحلّقت بها روح المداعبة التي كانت قد تلاشت من قبل:

" ألستُ أنا الأخرى كاعبا يا جد؟"

" لها جمالها يا ابنتي!"

وتراجع البشْر الذي أخذ يتشكل بعينيها.

" لقد كان واضحا معك يا حليمة"

" فوق الوضوح لحسن حظي، اعتزله تجهمه بغتة وداهمه الصفاء"

وقالت والدتها مسعودة:

" ألم تسأليه عن مصير أبيك أيتها البلهاء؟"

وقطبت:

" آه، فعلا لقد نسيتُ، أنستني الفرحة"

واستفهمت الواشمة في صدق:

" ومن جمال كاعبنا إذن؟!"

وتضاحكت مسعودة:

" وهل هناك غير الحركي العاشق؟"

وأحست حليمة بجرح قديم يعاوده النزيف، وامتعضت ثم تجاهلت كلمة والدتها:

" أصحيح صرت كاعبا في نظركن؟"

" لم تزايلك هذه الصفة في عيوننا يا حليمة"

وأرقدها الفرح ليلتها تلك، بحيث عاودها الحضور إلى كوخ العرّاف، كان هذه المرة أنيق المنظر، يرتدي برنوسين لامعي

البياض، ورأسه استبدل بالخرقة المتسخة عمامة تشاطر عمامة الشيخ معلى بعض تهاويلها:

" من جمالي يا جد؟"

" هو ذاك"

وأشار بيد ترصع أصابعها خواتم من ذهب.

" من؟! سي محمد؟"

" نعم"

"إمام الدوار؟!"

" أجل"

وأضاف:

" والذي يليه"

" وما اسم الذي يليه؟"

" السياسي"

" أتزوج من اثنين؟!"

وقهقهت قهقهة صاخبة فأيقظتها والدتها على إثرها:

" حليمة، بسملي يا ابنتي، خيرا إن شاء الله"

وقصّت على والدتها منامها، وما أن استرجعت وعيها حتى بدا الليل يمخره سكون يذكّر بأنغام الرومي التي طلقها ثلاثا مذ ليلة السجاف الرهيبة، آه، السجاف؟! في مثل هذا الوقت كانت تثيره خشخشة مقيتة، يعقبها لقاء لا يخلّف إلا مزيدا من الجراح النفسية القاتلة.

" بل سأطلق النار على والدتك"

وابتسمت في تنهد، وقبل أن يباغتها النوم ثانية طاف بخلدها سجن القلعة، حيث تترى الشهور بطيئة على والدها، وفاجأها سؤال تخافه، هل أحيط السيناتور بما حدث لها؟، لقد حاولوا أن يستشيروه في مسالة زواجها من الحركي، فلم يفلحوا في الاتصال به، وكان على الشيخ معلى أن ينوب عنه قائلا في مكابدة مفتعلة:

" أخر العلاج الكي"

وكان الكي بداية العلل، واصل الزمن توثباته فأوغلت زيارة حليمة للعراف فيما يشبه القدم، دون أن تنطفئ شعلة الأمل التي وُفق في إضرامها.

" لمَ تتسرعين البطيء؟!"

البطيء؟ أكل هذا الزمن المهمّش يعتبره الشيخ عجينة لا شيء؟

وخطر ببالها جمال، لقد صار" القسم" مُصلاّه الثاني، رفض كل لفتة، ما أقساه، ما أقسى سي محمد الذي صنعه ورحل، ما أقساهما معا في زمن القساوة، كم تباين الموقعان؛ موقعها وموقعه؟، كم تباعدت سبلهما؟ مسؤول في جيش التحرير تتطلع إليه زوجة حركي! ما أبشع الصيرورة حيث تتناقض، ما أتفه الرؤى حين يصدمها الواقع.

" تلك حكاية أخرى"

لكم كان العرّاف محقا وهو يصف قضية جمال بالحكاية الأخرى، ما يحزّ في نفس حليمة أن قلبه لم يخفق مرة واحدة بذكرها، تجاوزها حتى أيام العز المنهار، وهي ذي تحن إليه زمن البشاعة، إنها مدفوعة إلى القول بحبه.

" حـــــب!"

ماذا قالت؟ هل هو حب؟ أحقا أنها لاتزال قادرة على البذل وقد صارت عقيما؟ فليتكتم كل شعور نحو الناس، نحو البشر.

" آه، يا جمال لقد وُلدتَ كهلا، اختزلتَ عمرك."

ومع الصباح، وما أن همت والدتها بغسل كؤوس الشاي تحسبا لأي ضيف جديد، حتى برز وجه الطفل "بوداود" ابن بنت النمر من وراء السجاف، وأخذ ينادي:

" حليمة، حليمة"

" ماذا تريد؟"

" عبد الصابر يدعوك"

وكادت تشهق:

" عبد الصابر؟! أية مفاجأة؟"

وبادلتها والدتها نظرات مبهمة، وانصرفت عن تنظيف الكوب الذي كان بين يديها، وعلى عجل ارتدت حليمة خمارها وغادرت الخيمة، فالتصق نظرها بقامة عبد الصابر يقف إلى جانب مراد، لم يسبق لها أن قابلته هكذا مباشرة، وغلب على ظنها أن الأمر يتعلق بوالدها السجين.

" مساء الخير"

" مساء الخير"

وتقدم منها بينما ظل مراد واجما، يعكس محياه ظلال تجهم مسبق أخافها.

" أنت حليمة ابنة الشيخ المكي؟"

" نعم أنا هي ماذا هناك؟"

" لقد طلب مني زوجك مقابلتك"

وامتقع لون وجهها أكثر:

" خيرا إن شاء الله"

وتلمظ مترددا:

" لإبلاغك أنك طالق منه"

ورددتها لا شعوريا:

" طالق؟!"

وتشاكس على خديها احمرار مباغت:

" أبلغه أني طلقته قبل مجيئك منذ شهور، مع احترامي لمواقفك يا عبد الصابر"

وقهقه مراد في تعب تشجيعا لها وقال:

" والولد؟"

وزجرته حليمة في عنف:

" وما شأنه به؟"

وكادت تضيف:(الحركي) ولكنها سكتت احتراما لمشاعر عبد الصابر، ذلك الذي يحبه الجميع، مفضلة الانصراف، كانت الخالة مسعودة أمها قد أقبلت بدورها، لما فاجأها وقوف حليمة إلى جانب عبد الصابر ومراد على قارعة الطريق منذ حين، ولكن خطواتها لم تسعفها على اللحاق بالحديث الذي دار بينهم، فاتجهت صوب خيمة مراد في إثر حليمة.

" هيه يا حليمة ماذا أيضا؟"

سألتها الزانة قبل أن تأخذ مكانها، وتضاحكت حليمة:

" طلّقني الحركي"

وقفزت زينب:

" طلقك؟!"

وأضافت:

" الوغد هكذا بدون أية تبعة؟!"

وعلقت مسعودة والدتها:

" أرملة بولد شبه لقيط يا لعفونة الحياة!"

وقالت حليمة دون أن تبكي:

" لقد أخذت ألغاز العرّاف عجينة تعرب عن مضامينها"

ورمقتها والدتها شزرا:

" العرّاف؟!!"

وبطريقة إبراقية مألوفة عندها، نقلت الواشمة إلى رقية حدث اليوم.

الفصل السادس

رائحـــة الـــنـــطـــق:

أطلق سراح الشيخ بوخلوة وخصّه الدوار باستقبال مميز، وأعاد مجيئه إلى أذهان الكثيرين هيبة الطابور وإباءه، إلا أن واحدا في دهاء الرجل ما يلبث أن يتلمس بقوة ذلك الشحوب الذي غزا شخصيته بفعل الغياب المتطاول، لقد أسلم الطابور صغائره وكبائره إلى الشيخ معلى، ويبدو أنه يحسن تصريف الأمور بشكل غبطه عليه الكوراط السابق.

غير أن ما آل إليه أمر حليمة، وما طرأ على حركة قيادة العرش من تضييق أعطيا الشيخ بوخلوة حقيقة جديدة، وهي أنك لكي تسود عليك أن تسلس القياد، أن تعتزل الجموح الفطري، أكدها كحقيقة خالدة، وبين يديه بكت حليمة فواساها بقوله:

" إن الشيخ المكي بخير وهو يقرئ الجميع السلام"

هكذا قال، رغم أنه لا يعرف عن الشيخ المكي أكثر مما يعرفون،

وحين انصرفت حليمة منتعشة بهذا الخبر، بادرته العجوز زهرة:

" منذ أن افتقدك الطابور افترست حريمَه الكلابُ"

وغمغم الشيخ بوخلوة:

" إنه أمر الله"

وعلى عجل غادر الشيخ عطاء الله خيمة بوخلوة في حديث خافت يهيم مبارك بالإنصات إليه في أدب، وسائل الشاي المشيّح يرشح من إبريق حديدي سماوي اللون، ليكوّن دقيق زبد أخذ يتكوّم بعنقي كوبين زجاجيين، أقسم الشيخ عطاء الله إنهما من بقايا مشتريات

قوافل الجنوب، فتنهد مبارك وهو يضع ظاهر الكأس على خده، وكأنه يدفئ جرحا، وقال عطاء الله:

" أبلغني الشيخ بوخلوة أن بوغريبة معتقل!"

" معتقل؟!!! وهل التقيا؟"

" سمع أنه التحق بصفوف جيش التحرير وأسر أثناء اشتباك بـــ (تلال النعام)"

" ألم يقتل على مسمع من الرومي ويعقوب؟!"

" تيقن أنه لم يرتكب ما يدفع إلى قتله"

" لقد كنتُ على يقين من ذلك دائما"

وأكد الشيخ عطاء الله مبتسما:

" إنه لغز احتار فيه الطرفان؛ الثكنة والناحية معا"

وبعد المغيب أقبل الشيخ معلى عائدا من سوق المدينة، وقد ابتاع قطيعا من الكباش بكامله، أخذ بعضها يثغو خلف ألواح الشاحنة، ويعقوب يحاول تهدئتها في نرفزة معهودة فيه.

هكذا تواترت حياة الشيخ معلى، ما أن تنقضي أيام حتى يصطحب أحد رعاة الطابور إلى سوق المدينة، ليعود بعدد من رؤوس الأغنام، وقليلون هم أولئك الذين يدركون مصادر ثرائه المتنامي، وفي هذه المرة آب بقطيع بكامله.

كان يعقوب لا يفكر إلا في كلمة سمع اليهودي التاجر يخاطب بها الشيخ معلى أثناء مرورهما بمتجره، قال له في تأكيد:

" حين تصير غنيا فلن يهمّك أمرُ من غلب"

الرومي، لكم توقّع أن يقع عليه اختيار قائد الطابور ذات مرة، ليزور المدينة اللغز، فيستطلع عن كثب مغريات أفلح بوغريبة في تأجيج مفعولها بنفسه، ولكنه توقع بعيد التحقيق لحكمة يجهلها.

إن المشاهد التي رسمها بوغريبة في ذهنه تحتاج إلى معاينة على الطبيعة، إنه من كل أعماقه يود لو يعايش وقائعها، أن يلمسها

أم أن حظه من الحياة هو الخيال فقط؟!

وسأل يعقوب حين خلا به في الخندق:

" هيه لعلك عدت بأخبار كالتي عوّدنا عليها بوغريبة ؟!"

كلاهما تمدد بإحدى زوايا الخندق:

" غامرت بتفقد جناحها لأسألها عن بوغريبة، الحظ تعس"

" من؟ الرابلة؟"

" أجل"

وقهقه الرومي وهو يصلح حزمة من سعف الحلفاء كانت قد شذت عن المفروش:

" كلكم لا يزور المدينة إلا طمعا في رؤيتها، إنكم رعاة بحق"

وتنهد يعقوب دون أن يضحك كما توقع صاحبه:

" ومن نحن غير ذلك؟"

وقبل أن يستبدل بالكلام آخر قال:

" سمعت أن بنت النمر تنوي إقامة وليمة تبركا بشيخها الجيلاني"

وأطنب الرومي في سكوته.

وفعلا طوال الجدل النسائي الصاخب، كانت بنت النمر تفكر في الوليمة، متى ستقام؟ ومن سيحضرها؟ وهل يمكن أن تقتصر على

النساء وحدهن أم؟ وكلما هدأ الجدل خشيت حليمة أن يتحول الحديث إلى قضية طلاقها، ولاسيما ما ستتفوه به رقية من كلمات نابية، تترك أثارها بينة على صفحات الفؤاد الرهيف.

وقررت حليمة أنها ستتصدى لكل ما قد تتلفظ به رقية المتعجرفة، لسوف تكيل لها الصاع ثلاثة وليحدث ما يحدث ، اكتفت في أول الأمر بمناغاة طفلها وهو يعبث بقطعة خبز مفؤود.

ما يهم حليمة هو فقط أن ينظر الدوار إلى فاجعتها كحادث مضى، فما دامت مُطفلا نتيجة زواج معلوم كامل الأركان، ما الداعي إلى نبش مكامن الألم؟ لماذا لا نرصد الظواهر مجردة عن أصولها أحيانا، حتى نمنح الأخرين إحساسا بالدفء ولو مؤقتا؟ لماذا؟

وقالت حليمة مخاطبة بنت النمر وكأنها تستفز رقية:

" لسوف أذبح بدوري لبودربالة نعجة، لأنني أنهيت إدماني على التفكير القاتل، إنني حرّة، ومن يدري؟"، ولم تعلق رقية رغم أن دافعا ما يدعو إلى ذلك، بل قالت وكأنها تتحدث بلغة أخرى:

" ربنا أكبر، والماضي يمضي يا حليمة"

واستحسن الجميع كلمات رقية غير المنتظرة، وهمست حليمة في تصاغر، وقد تبللت عيناها الواسعتان، وهي تديم النظر إلى طفلها الممدد:

" الماضي يمضي يا خالة، إنني أحب كلماتك حين تزايلها الغلظة تجاهي"

ولأول مرة أبكاها شأنُ حليمة، وسكتت أم حليمة فأطالت السكوت، وكأنها تخشى تكدير مطالع الصفو، ومسحت رقية دمعها وقالت:

" لن أتناول قضية ابنتي بغلظة ما حييت، لن تلتمسي فيّ إلا ألين الكلام، فأنت لينة ويجب أن نعاملك بلين"

صحيح؟! ماذا بقي من حليمة ليقاوم؟ لقد خمدت جبهتها، فخبر اليوم كان إعلانا نهائيا عن سقوط أخر تحصيناتها، إن من يحارب حليمة إنما يحارب نفسه من باب التسلية، فلقد سقطت "كأخر" توهّمه الآخرون، انتهت كطرف، وهي في الواقع لم تنصب من نفسها "آخرَ" لأي "آخر" ولكن؟ هل أن كل ما ننشده في عدونا هو أن نوصله إلى حد يفتكّ منا فيه شفقتنا، لننعم بتفاعل إحساسين موغلين في التضاد؟ النقمة، الشفقة؟ وكأبلغ تعزية احتفظت حليمة بكلمات الخالة رقية، وهي ذي الحياة لا تعطينا إلا حين تفقدنا كل ما نمتلك؛ تاجر ماهر، جدول ميزانية هي الحياة.

واكتفت حليمة بما تحصلت عليه من صفاء الخالات، واتجهت صوب خيمتها يتبعها الناصر الصغير، وتنهدت الخالة زهرة صادقة، وعيناها تلفّان قامة حليمة حين انصرفت:

" إيه، فرس نجيبة"

وتفطنت بنت النمر إلى انصراف حليمة فنادتها:

" حليمة، أتذهبين وقد اعتزمنا "توقيت" ضريح سيدي عبد القادر؟"

" ولكنني متعبة يا خالة"

" خالـــــــة!"

وقهقه الجمع.

" تصورن أنا بمثابة خالتها؟ !

وتوقفت حليمة تنتظر، فقالت بنت النمر:

" لن نبرح بدونك، تعالي يا جميلتي"

وابتسمت في عطف:

" انتظريني إذن"

وصاح الشيخ عطا الله من خارج الخيمة:

" الواشمة، هل من لبن؟"

وانفجرت بنت النمر مداعبة:

" تتجاهل صهاريج اللبن بخيمتك ثم تطلب إلى الواشمة ذات الخمس عناز إطفاء عطشك!"

" وما دخلك أيتها البخيلة؟"

" بخيلة؟!لسوف ترى بعد حين دمها يُهرق تبرّكا ببودربالة"

" اللهم اطعمنا حلالا"

قالها وهو يتناول الإناء السعفاوي من يد الواشمة، التي أرغمتها كلماته على الضحك.

" مساء الخير عمي عطاء الله"

نبرت حليمة بالقرب منه في طريق عودتها إلى خيمة بنت النمر.

"حليمة، انتظري"

وانتظرته إلى أن فرغ من شرب اللبن، ماذا يريد عمي عطاء الله من حليمة؟ تساءلت.

" عندي لك مبلغ من المال "

" إلي؟! "

وقال وهو يتأكد من انصراف الواشمة:

" أجل، إليك كتعويض عن الخسارة"

" خسارة؟!"

" ذري التفاصيل إلى ما بعد، فقط عليك بالكتمان"

واصلت خطوها وقد أراحها الخبر، لم تفكر إطلاقا في مقدار المبلغ المرسل إليها، ما يشغل بالها أن هناك جهة تشاركها التألم، تعترف بأنها خسرت فعلا، هذه الجهة تحس، إذن ذات الإحساس، وتمادى عدّاد ظنها في الإشارة فتجاوز العام إلى الخاص.

" من؟ جمال يواسيني بالمال! وقد تمنيتُ كلمة منه؟"

أكدت لنفسها أن الشعور أكبر من جمال، أكبر من مجرد معرفة أو علاقة فردية أو انتماء طابوري، إنه تعويض من الجبل، بهذا التعبير تبقى الهدية مغرية، حقا فالشيخ عطاء الله لا يتحدث إلا باسم الجبل كالسيناتور تماما.

كاد شعورها يحملها على جناحيه إلى ما وراء خيمة بنت النمر، من الذي صادفته اليوم فور يقظتها من النوم؟ من؟ الناصر الصغير؟ والدتها؟ من؟ هل يفرحها أمران في يوم واحد؟! رضا رقية؛ وتعزية (أصحاب الجبل) ؟!

"حليمة، هيه، من يرافقني إلى الضريح؟"

قالت بنت النمر وواصلت:

" حليمة، زينب، الواشمة، الهلالية وأنا"

وعلقت العجوز زهرة ضاحكة:

" ترفضين اصطحاب المسنات إذن؟"

" حتى نسير على عجل فالوقت يلاحقنا يا خالة"

" والعسكر؟! ألم تقاطع نساء الدوار كل الساحات؟"

وقهقهت بنت النمر:

" إن أرادوا خمسا، فنحن خمس؛ فاتنات"

وأكملت زينب:

" ومن طابور واحد"

وأحست الواشمة بنظرات بنت النمر وكأنها تجاملها، فهي أخر من يوصف بالجمال، وأسرعت بإجراء ترتيب منطقي فوجدت أن حليمة هي الأجمل، تليها بنت النمر، فزينب فالهلالية فالواشمة.

ومراد منهمك في سلخ شاة الوليمة قالت زينب:

" مراد؟ هل تفكر في كلام الشيخ عجينة؟"

" أبدا فالرجل مخبول كما تعلمين"

" لكنه عرّاف؟!"

وكاد يصرخ:

" لقد تنبأ بانهيار القلعة وهي ذي تزداد صلابة"

" قد يحدث"

" ألم يقل الضابط للأعيان إن المنجمين الفرنسيين حددوا قرنا واحدا لمكوث الفرنسيين ببلادنا وها قد تجاوزوه؟!"

"كان يفند مزاعم المنجمين حين علم بأمر العرّاف عجينة "

أولمت بنت النمر، فأحدثت بذلك حركة غير معهودة في الطابور، وكررت الأيام لعبتها في دمل الجراحات النفسية، وإطفاء الأصداء التي خلّفها طلاق حليمة، فتراخت أمارات الامتعاض والإشفاق، شأنها شأن أمارات التشفي والاستفزاز.

ورغم أن الطلاق كان في نظر الجميع، هاوية لا تفضي إلا إلى هاوية أظلم، اعتبره الرومي خلاصا متوقعا، فالظروف كلها صارت في نظر الرومي عابرة متغيرة، تفقد مظاهر الثبات تحت تأثير اهتزاز يتمنع عن الرصد، ولعله الهاجس الذي جعله يعدل عن معاداة القصبة حين تزوجت حليمة، إذ سرعان ما ارتمى على بساط النغم.

الرومي لا يعتزل القصبة إلا مؤقتا تحت هذا الظرف أو ذاك، وإيقافها لا يعني إلغاءها، فمادامت الحياة ترتبط بسخريتها، فلماذا يضحي هو بلعبته المفضلة؟، أيقن يعقوب أن خبر الطلاق قد أسعد الرومي فجأة، إلى حد أنه طلب إليه أن يغني، وغنى يعقوب بحرارة وكأنه يعيد زمن الدوار، وأبكى الرومي قصبته بغزارة دمع.

اللحن كان موظفا وخفيفا يطال الأمس، ويتلمس اليوم، ويتموج في اندفاع نحو الغد، وأسعفت يعقوب قواه الصوتية على ملاحقاته، فتمازجا إلى أن أذاب كلاهما ذبذباته في زخم الأخر.

وتحسس الرومي مصدر هذا الصوت، فشخّصت مخيلته كهلا يعتمر عمامة، يجلس في وقار فني إلى جانب "مغنية أفراح" مقنّعة بخمار أسود، وهو يحترف إجفال القلوب، قصباه كانت موشّحة بتهاويل الخطوط الدائرية و المستقيمة، وثقوبها مزدانة بأنجم دقيقة ، وموقع شفتيه منها مرصّع بنحاس أصفر لامع، القصبة فن وحرفة وهوية.

وحين اهتم يعقوب بإعطاء كل كلمة مدلولها الإيقاعي، كان الرومي يعزف بجنون وعيناه تترصدان تحركات القطيـــــــــع، وسرعان ما حاصره تجهمه، فأدرك يعقوب أن تداعيات القصبة قد أبحرت به إلى خارج جاذبية حليمة، إنّ النغم هذه المرة يستجمع كل أشتات اللوعة، بكائيا صار أكثر، يلحّ في دعوته إلى الانصراف عن الماثل، وفي صراحة متناهية أوحت عيناه العائمتان عبر النغم أن الأمر يتعلق بمريم.

مريم! تلك التي ضمن الموت طهارتها، فحملت مرادف المعنى الذي لا يصله إلا الشعر، وأنهى الرومي مناحته ليسأل يعقوب:

" ماتت مريم تحمل كل شارات الكمال"

" لقد حرصتْ على ألا تُريك إلا جوانب الكمال فيها كأي امرأة"

وتوقف الرومي مبحلقا في هندام زميله:

" هل أنابك بوغريبة عنه في مهمة التشكيك هذه؟!"

وغمغم يعقوب:

" الرومي، ما بك أم تذكرت مريم؟"

" بل تذكرتُ والدي هذه المرة"

وقال في حماس:

" لقد قُتل والدي من أجل فرنسا وعلى أبوابها، فممن يحق لي الانتقام إذن؟ منها أم من الألمان؟"

وأقبل المغيب ليسوق القطعان إلى الدوار، وكان الرومي عكس زميله يعقوب محمّلا بزاد من " الترفاس" و " الأيهقان" و"الحارّة" و"القيز" و" الفوقاع"، وألحقه يعقوب بضحكات متقطعة، وفنان الدوار يتجه مباشرة صوب خيمة حليمة، ليضع الحمل بين يديها:

" حليمة، جئتك ببعض المشتهيات السهوبية"

" كان عليك أن لا تكلف نفسك حمل كل هذا يا الرومي!"

" إنه لك وحدك، لا تمنحي أحدا شيئا"

وقالت في شبه خنوع:

" تشفق عليّ؟!"

" بل أشفق على نفسي"

وضحكت:

" ولكنك ترهقها؟"

وحوّل نظره عنها:

" فلتُرهق من أجل حليمة"

وواصلت ضحكتها:

" الرومي؟! ما بك؟"

الخالة مسعودة تنظر إليه في دهشة أنستها دعوته إلى الشاي، وسارعت حليمة بالقول:

" اجلس لأهيئ لك كأسا من الشاي، فأنت متعب بل لسوف أطهو لك بعض هذا الترفاس"

وناوشت شفتيه بسمة شبه عابرة:

" أمّا الشاي فنعم وأما الترفاس فهو لك وحدك"

وبحركة غنج:

" وحدي؟"

وتدخلت مسعودة:

" ولا أنا؟"

" ولا أنت"

وعاود حليمة جدّها:

" مالك يا الرومي؟"

" حليمة؟!!"

وأجفلتها دعوته الهامسة وهي تقترب منه في تحفظ:

" بوغريبة لم يمت"

واتسعت عيناها أكثر:

" وكيف؟!"

" ولم يُجرم في حق السيناتور"

" كلام الرابلة حقيقي إذن"

" أكثر من حقيقي"

" وأين هو الآن؟"

" أسير في الثكنة"

واستطرد الرومي:

" زميل له في الجبل هو الذي أرسل إليكما بخيرات السهب هذه"

وقالت حليمة شبه غاضبة:

" وأنت؟ ألا تحسن إلا الادعاء بأنك مرهق، ومتعب، وهذا لك وحدك، ومن أجلك، و"

ونبرت الخالة مسعودة:

" منذ أن غادرنا بوغريبة لم نذق للترفاس طعما"

وقبل أن تسأله حليمة عن اسم رجل الجبل هذا، اندفع الرومي نصف ضاحك:

" خالتي مسعودة أطلب منك يد حليمة!"

غامر بطلبه وسكن لا يبدي حراكا، وفي عصبية قذفت حليمة بإبريق الشاي الذي كانت تمسكه قائلة:

" ماذا؟!!"

وقالت الخالة مسعودة وهي تشفع كلامها ببسمة مصطنعة لم تستقر على شفتيها:

" عيب، يا ولدي، عيب"

ونظر في انشداه إلى حليمة وهي لاتزال مرتبكة:

" عيب؟!"

وصرخت حليمة بأعلى صوتها:

" أم أننا صرنا لا نتقي العيب؟!"

وتحرك في جلسته متضرعا إليها:

" أرجوك، أنا لا أقصد الإساءة، أرجوك كفى"

وغادر الخيمة شبه باك، يلاحقه نداء الخالة مسعودة:

" الرومي، اشرب الشاي فقط"

لقد ظن أن الأيام قد روّضت جماح حليمة، وأن إصابتها قميئة بأن تضعها بين يديه، ولكن يبدو أنه لا يزال تحت المستوى الذي رسمه لنفسه، وأن جسارته لم تُختبر بما فيه الكفاية.

وذُهل حين حاصره صوت حليمة هذه المرة وقد زايلتها المفاجأة:

" الرومي. تعال برأس حليمة أن تعود وأن تشرب الشاي"

وعاد الرومي يلفّه الخجل وعيناه لا تقويان على النظر إلى المرأتين معا، وفكّر في كلمات مناسبة للاعتذار، لولا أن حليمة سبقته إلى القول:

" آه، لايزال رأس حليمة ذا قيمة عندك كأيام عين الخروب؟"

وأضافت وهو منكس الرأس منزويا:

" ألم تحاول أن تلطمني بعصاك الغليظة يومها؟ لقد كنت شجاعا فماذا دهاك اليوم؟"

وحاول أن يبتسم وهو يحرك نظره غير المستقر نحوها:

" سامحيني يا حليمة"

وقالت وهي تصوّب فوهة الإبريق نحو الكوب الزجاجي:

" ماذا بقي من حليمة لكي تتزوج منها يا الرومي؟ أعتقد أنني لا أصلح لأحد!"

وبتلعثم قال:

" حليمة ستظل كما عرفتها"

" ومريم؟"

" لم أستبدلها إلا بما هو أنسب منها"

وقالت الخالة مسعودة:

" وتعرف كل هذا الكلام؟!"

وضحكت حليمة في وجه والدتها التي أخذت تقشّر الترفاس:

" الرومي لا يحسن الكلام إلا من خلال قصبته، كلام كثير أفهمه أنا فقط"

وقالت الخالة مسعودة:

" الرومي، ربما كنتَ من تكهن بمجيئه العرّاف عجينة، إني موافقة وبقي أن تستشير حليمة والشيخ عطاء الله"

" عطاء الله؟ وما دخله؟"

وعجبت مسعودة لسذاجة الرومي:

" هو الذي يصدر عقود الزواج الصحيحة، هو القاضي"

وأضافت في ابتهاج وكأنها تحادث نفسها:

" لسوف أعلن للجميع أن حليمة ليست قابلة للكساد"

وأكمل الرومي وقد ارتشف أولى جرعات الشاي:

" ولا للبيع في السوق السوداء"

ورمقته حليمة باسمة وهزت رأسها بالإيجاب، وقالت:

" آه، والطفل الناصر؟"

" أعرف أن لك طفلا يا حليمة"

بات الرومي ليلته تلك لا يعزف إلا لحن " حيزية"، وكأنه يصرّح بإلغاء كل التزاماته نحو الماضي، سيما وأنه مرّ في طريقه بخيمة الشيخ عطاء الله، وافتك موافقته نيابة عن المجلس القضائي وعن السيناتور، ومن ساعتها أحس أنه سيكون القيّم على ترميم كل تلك المفاتن التي بعثرها الزمن، والمُلزم بإعادة صياغة تلك النفسية الرقيقة، التي أثخنت فيها جراحات الأيام، نفسية حليمة.

ولما غنّى يعقوب من شعر محمد بالخير:

"خبّرني خبّرني على أعربْ خيرة وين أنزول"

صاح الرومي في غضب:

"عن أية خيرة تتحدث أيها المغفل؟! يا أخي غن لنا أشعارا لطالما كنت تغنيها تتضمن اسم حليمة، أي حليمة المهم حليمة"

وضحك يعقوب وقال:

" لكننا مللنا من ترديد الأشعار التي تمتدح جمال الحليمات!"

وقال الرومي قبل أن تستقبل شفتاه القصبة من جديد:

" وأنا لا أهيم إلا بالأغاني التي تفيض بذكر حليمة، بل إن ذكرها يساعدني على التركيز في أداء النغم والذوبان في إيقاعه"

وما كان للوضع أن يختلف لدى حليمة، فقد قضت ليلتها وكأنها غير حليمة التي تلقت من عبد الصابر أمرا رادعا بالطلاق منذ أيام، وباتت مخيلتها ترسم طيف الرومي، ذلك الذي طالما ناجاها

بأ نغامه من بعيد في عتمة الدجى، وحاولت أن تتخلص من نزعات جانبية تتناوشها في وهن، كتلك التي لا تجعل من الرومي سوى راع، وأنه لولا عمق الجراح ما استسلمت لمواساته، ولكنها

وإن همّشت هذه النوازع المتطفلة، مؤكدة لنفسها أن الرومي ليس حركيا على الأقل، وأنه الوفي الذي انفرد وجدانه بالإخلاص للحب عقدا من الزمن، بكى فيه مريم بكل غزارة دمع، فيعزّ عليها أن تتزوج ثانية في غياب والدها، وتنهدت.

كانت فكرة زواج حليمة من الرومي تمثل قاسما لتفكير خمسة من شخوص الطابور الواحد والعشرين: حليمة ووالدتها، والشيخ عطاء الله، والرومي ويعقوب، ويعقوب رغم أنه سارع إلى الموافقة إلا أنه أبدى اعتراضات لم تصمد أمام حماس الرومي:

" وخرافك الأربعة هل ستكفي لإعالة حليمة؟"

" حليمة ليست بذئبة همّها افتراس الخراف"

" كن واقعيا فهذه قضايا لا تلطّفها خصوبة الأنغام"

" لسوف اشترط على "الباترون" رفع حقوقي السنوية إلى ستة خراف، أو أعتزل الرعي ما رأيك؟"

" تعتزل الرعي؟ وماذا تصنع؟"

أنضم إلى إحدى الورش"

" ورشة السياج المكهرب؟! لا يوجد غيرها فيما أعلم، وبذلك تساهم في إحكام الخناق على دوارك"

وأضاف يعقوب:

"أنصحك بالرعي عند "الجودام" فرعاته يتقاضون تسعة خراف سنويا"

" ولكنه حركي؟!!"

" أم إنك تخشى ثورة حليمة؟"

وسكت يعقوب ثم قال:

" هل تذكر يوم أن دعانا بوغريبة إلى شن إضراب لتحسين دخل الرعاة فسخرنا منه؟"

" آه، أذكر، فلنبعث الفكرة من جديد في نفوس الرعاة، ونضع سادة السهوب أمام أمر واقع"

" نطالب بعشرة خراف سنويا"

" والشيخ معلى؟!"

" سيخضع هو الأخر"

وضحك الرومي:

" سينسب الفكرة إلى "أصحاب الجبل" ويستنجد بالضابط في تأديبنا".

وحين اضطجع كلاهما للنوم علّق يعقوب:

" منذ الليلة ستنام بخيمة السيناتور وتتركني بالخندق وحيدا، إيه الحظ"

" اطمئن لن أنام بخيمة الشيخ المكي احتراما له"

ولأول مرة نام الرومي في مثل هذا الوقت المبكر، تاركا يعقوب يسترجع ما دار بينهما قبل حين.

وفي الصباح الثاني لاحظت المدعوات إلى زفاف حليمة، أنها استرجعت سابق توهجها كهرم متضرر أعيد ترميمه بعناية فائقة، كل شيء استعادته حليمة إلا ما لا يُعاد، ولم يكن كبير أثر في نفسها اليوم، فزفافها هذه المرة سيكون زفافا لا يعوزه إلا حضور الشيخ المكي، وفرحتها ستصير فرحة لا ينقصها إلا ما ينقص فرحة الجميع.

بل إن "بوسنة" قد تطوّع بعزف أنغام شجية أمسية عرسها، متجشّما استعارة ألة زرنة خصيصا لذلك، وأقسم الشيخ مبارك إنه

لو وجد إلى جانبه فارسين فقط، لأتخذ من المسافة بين الخيم والسياج الشائك ميدانا لألعاب الفروسية، وظل جواده يصهل ويحمحم وحيدا وكأنه بدوره يعبّر عن احتفائه بعرس حليمة من بعيد.

واستنبتت ساحة الطابور، رقصات رجالية شيّقة أعادت لقطاتها السريعة وتوثباتها الخاطفة، إلى نفوس المشاهدين ماضيا لفّه الزمن في أرشيفه المؤجل، وافتقدت حلبة الرقص وجوها معروفة بحذق هذه الرقصات، كبوغريبة وقدور ويعقوب، وسجناء تأويهم ظلمات القلعة الرهيبة، وأبدع مراد في رقصة "النهارية" تحت زغاريد زينب والهلالية وبنت النمر، التي بالغت في مداعباتها إلى حد كاد يغضب زينب، وتحاشى بوسنة عزف لحن "كي طال الحال" المحظور، الذي تسبب في تكسيره زرناه ذات مرة، مستعيضا عنه بألحان أخرى، وتعالت أهازيج النساء من داخل خيمة العرس، وبكت الخالة زهرة فعلا موسطاش الثاني، فكادت تتحول رقصة الصف النسائي إلى مناحة، لولا أنها كفكفت دموعها وتكلفت مشاركة الجمع غناءه.

وناب الشيخ عطاء الله عن الرومي في دفع جهاز العروس إلى حليمة، وأفردها الشيخ بوخلوة بكبشه النايلي، وذبحه بيده أمام خيمتها، وعلّقت حليمة:

" إنه الكبش الذي كان يحسن استقبال بوغريبة"

وخصّ مراد خيمة العرس بحملي حماريه من الحطب، وتنازلت زينب عن بعض زينتها لصالح حليمة، وأهدى يعقوب الرومي 12 خروفا من خرافه، وجاء عبد الصابر بكمية من فاخر التبغ؛ بل إن رقية زوج قائد الطابور تولت شخصيا وضع الحنّاء في يد حليمة، وهو ما لم تحظ به امرأة غيرها، منذ أن صارت رقية تعرف بـــ (بمدام القائد).

ورأى الشيخ معلى نفسه كقائد طابور، مطالبا بتقديم شيء ما إلى حليمة، فأعلن نزوله عند فكرة تسعة خراف كحق سنوي للرومي، وقد كان أخر من تنازل بقوله، وهو يناول الخالة مسعودة تسويغا بالعرس موقعا من طرف الضابط:

" إنه تنازل تستحقه منا حليمة"

وقال الرومي عندئذ:

" حليمة دائما فأل خير، كل شيء قد لان في وجهها حتى قلب الشيخ معلى"

وطار تعليقه عبر خيم الطابور وكأنه تصريح رسمي، إلى أن بلغ أسماع الشيخ معلى ذاته، فلم يزد على أن قهقه في تسامح غير معهود.

إن زفاف حليمة قد استعاد عادات الأعراس، التي كاد يكتم أنفاسها المحتشد بفعل طقوس الحرب الاستثنائية.

ومرت بالقرب من الطابور دورية عسكرية، توقف قائدها ليسأل عن هوية العلم الأبيض اللون الذي يخفق فوق خيمة العرس، فاستصعب الشيخ معلى إقناعه:

" إنه علم "الولي الصالح" متوارث منذ قرون"

" هل كان هذا الولي قائد جيوش ليتخذ علما؟!"

" لا أدري ولكنه علمه على كل حال، كان صاحب بركات"

وكاد الشيخ معلى يوغل في أحاديث، اعتبرها المترجم خرافية، فأغفل نقلها إلى قائد الدورية، وانصرفا ضاحكين.

وعلى متنها حملت إحدى ساعات الأيام الموالية نبأ الإفراج عن الشيخ الفُضيل، وكزعيم روحي غير رسمي للطابور الثاني، شهدت أحايين قدومه ما يشبه احتفالا اقتضى من الضبط الأمني مستوى ما

، ومع ذلك لم يتخلف عن حضوره الشيخان عطاء الله ومختار، على غير علم منهما أن الرجل يحمل لطابورهما خبرين متباينين المحتوى، خبر بقرب إخلاء الشيخ المكي.

" وما هو الخبر الثاني يا شيخ؟!"

سأله الشيخ عطاء الله، وزفر الفُضيل بكل قواه الصوتية:

" إن بوغريبة يواجه عقوبة الإعدام"

" الإعدام؟!!"

" هذا ما بلغني، وهو مؤكد"

وفور تلقي دوار بوغريبة هذا السيل من المستجد، استأنفت نفس حليمة تطلعها إلى لقاء والدها.

" الرومي، لا تغادر الخيمة إنها ليلة رهيبة!"

قالت حليمة وهي تضع بين يديه صحنا من الكسكسي عليه شرائح(الفوقاع).

" ولكنني واعدت يعقوب بالمبيت سويا؟!"

وتدخلت الخالة مسعودة التي تدثرت بغطاء صوفي خشن لشدة البرد، وحظر إشعال النار:

" هل جننت؟ ألا تسمع دمدمات الرصاص؟!"

رغم طلقات النار، الدابة لم تسقط أرضا، إذ مكثت منتصبة على مقربة من السياج الشائك، محتفظة بالزاد الذي على ظهرها، كان أفراد الكمين من "الحركى" كلهم، وهم مجموعة عددية لا يستهان بها، قد استطابت العيش بهوامش ديوان شؤون الأهالي، فقدموا لهذا الديوان خدمات يعترف بجميلها ، تماما كنسائهم اللائي ينتدبن لخدمة زوجة الضابط، وهي مثال الأروبية المدللة التي لا ترى فيمن حولها سوى أشياء وكائنات أعدت للاحتفاء بها ، ففي نظرها

أن عوائل القرية، ما هي إلا عينات من جنس بشري قد انقرض ، ويُحتفظ ببقايا متحجرة للنزهة والتفسح.

الدابة تم تطويقها واقتيادها إلى ديوان الضابط، بعد فرار صاحبها نحو الدوار.

كان الضابط بوصفه مسيرا للأقسام الإدارية المتخصصة (S.A.S) حيويا ذكيا، يعتمد الدهاء، عاملا على كسب ثقة الأهالي، إذ فور اطلاعه على الخبر، ومعاينة الحمار المحمّل بالزاد **وقد تأكد من أن تلك البضائع النفيسة، كانت في طريقها إلى أصحاب الجبل طبعا**، قال بلهجة آمرة يخشاها الحركى:

" افسحوا المجال في وجه الدابة، لتعود إلى منزل صاحبها فنتعرف عليه وينتهي الأمر"

غليونه أشعله غير أن الريح كانت تختطف منه حرارة أعواد الكبريت، بسرعة أخذ يمتصه بشراهة، تلقاء عتبة الديوان انصرف، الحركى لما يغادروا أماكنهم بعد، كانوا محدقين بالدابة، كل منهم يود إغفال زملائه لاختلاس بعض حمولتها، فهذه الدواب المتلبسة التي تُرصد في حالة كهذه، غالبا ما تحمل من الأمتعة نادرا وضروريا: جلابيب صوفية، سجائر فاخرة، أحذية قريبة من الأشكال العسكرية، مذاييع متفاوتة الأحجام، أدوات حلاقة، مواد غذائية متنوعة.

لكل هذا، أصبح الحركى يُعرّفون الأحمرة المتلبسة "بالمتاجر المتنقلة"، التفت الضابط إلى الحركى وقال:

" قواد الطوابير يُدعون للاجتماع فورا"

" أمركم"

استدار ضابط الصف ذو الطاقم الذهبي، بعد أن أدّى التحية العسكرية، وأخلى سبيل الدابة، التي انطلقت صوب نهج مظلم به

انحناءات، ما لبث أن التوى في نهايته المسقوفة بخشب النخيل، وحافظ الحركى دائما على مسافة تفصلهم عن الحمار، وهم يزحفون مع الزقاق المظلم، الذي كانت تنفخ الريح في أرصفته فتثير زوابع متقطعة، سرعان ما يكبتها المنحنى المسقوف.

أحذية الحركى تُحدث قرقعات مختلفة الإيقاع، وهي تطأ شظايا زجاج متناثرة على امتداد النهج المظلم، وعلّق قائد المجموعة هامسا:

" لكأنه نهج سكارى!"

وأسمعه الحركى ضحكاتهم إرضاء لكلمته، إلا عبد الصابر الذي يبدو متخلفا عن المجموعة نوعا ما.

" الدابة تنتمي إلى القصر حسبما اعتقد؟"

" أجل، فأحمرة الخيم ليست مروّضة بهذا الشكل"

دنا الحمار من وصيد خشبي فارغ الوسط، متباعد اللوحات، متداخل الشكل، فجوة واسعة تفصله عن الجدار من الناحية اليمنى، كانت الفجوة كافية لإدخال حمار والباب في حالة إغلاق.

عن المسير توقف، برأسه أخذ يلامس الوصيد وكأنه يقبّله في اشتياق، وهو يتمسح بالجدار الذي يُمثل نهاية قوس الباب، فما كان من الحركى إلا أن هاجموا المنزل، كان ضيّقا لا يحتوي على أكثر من غرفة، أخرجوا صاحبته؛ لم تكن رجلا كما توقعوا، بل إنها امرأة مسنة، رثة الثياب، متواضعة الزاد فيما يبدو، بادرها ضابط الصف ذو الطاقم الذهبي:

" حمارك هذا؟ أليس كذلك؟!"

" ليس لي حمار"

في عصبية هذه المرة:

" أتنكرين أيتها العجوز الحقيرة؟"

قالت في ارتجاف بيّن:

" لا أنكر أن لي قطا يا ولدي أسود اللون هزيلا"

وابتسم عبد الصابر في صمت.

" ثم ماذا؟"

" غيره لا أمتلك أي نوع من أنواع الحيوان"

" حسنا"

أخرجت العجوز بعد أن مُشط منزلها مشطا دقيقا، وإلى جانب الحمار سيقت مشيا على الأقدام نحو ديوان شؤون الأهالي، ضابط الصف يتتبع الدابة باهتمام، وبقية الحركى يحدقون بالعجوز، وهي تسير في تحفظ والظلام يكتم دموعها، ودنا عبد الصابر من قائد المجموعة:

" أتشكّون حقا في أمر هذه البائسة؟"

" حظها لم يخدمها"

" ولكنها لا تمتلك حمارا؟!"

انتهره:

" كلمات خطيرة تتفوه بها دائما يا عبد الصابر"

" إنها الحقيقة"

ولمعت عيناه في الظلام فتثاقل به الخطو:

" أو تعرف حقيقة الحمار؟"

" كل ما أعرفه أن الحمار لا صلة له بهذه البائسة"

" ولمن عساه يكون؟"

وقهقه ضابط الصف في تعب:

" ألا تعرف أن عبقرية "الفلاقة" لا تكمن إلا في استغلال هذه الأنماط المغلوبة على أمرها؟!"

عبد الصابر رجلاه تتحركان في تعب خلف ضابط الصف الذي يتقدم المجموعة، والعجوز تردد شهقاتها كإيقاع يواكب حوافر الحمار وهي تفرقع دقيق الحصى.

الديوان كان مُضاء، وبعتبة بابه الزجاجي ذي الدفتين، يجثم شيوخ يعلكون التوقّع، لا يتحادثون إلا لماما؛ عكس ضوء الباب قامة الحمار وأشباح الحركى؛ وصورة العجوز المسنة بثيابها الرثة.

عيون الشيوخ استقرت على الحمار محمّلا بالزاد، وعلى العجوز الباكية خلفه وقد قبض على يديها حركيان، بدا أحدهما ببذلته العسكرية التي تفوق قامته، كما لو أنه ممثل كوميدي، دُهشوا، أجمعوا على النظر إلى " العامري" فالعجوز "منصورة" تنتمي سكنيا إلى طابوره، طابور القرية، وجهه استحال قطعة رمادية داكنة، غادر مكانه كأنه يجرجر رجليه، في طريقه إليها لاحظ أنها ترتجف كما لو أنها انتشلت من بركة ماء، في هذه الليلة الديسمبرية القارسة، قال وهو يعض شاربه:

" العجوز منصورة؟!"

" ن ع م "

" ماذا حدث؟!"

" لا أدري يا سيدي"

وأجهشت. وعلى مرأى الأضواء المنداحة إلى خارج رواق الديوان، وهو يمارس حضوره إلى جانب قادة الطوابير، تفّرس الشيخ معلى في هيئة الحمار بدوره؛ فأجفلته حقيقته، إنه، إنه،

يا للفاجعة ماذا يرى؟!!! وكاد يسأل الذي يجلس إلى جانبه من زملائه، إن كان في حلم أم لا يزال على قيد اليقظة؟ ولقد خدمته اللحظة الموالية حين سمحت للضابط بالانصراف إلى الثكنة لإطلاع النقيب عن مقدمات الأمر، بحيث قفز الشيخ معلى باتجاه ضابط الصف ذي الطاقم الذهبي، الذي كان يتخذ من بقية الحركى مكانا شبه منعزل.

" ما بك يا شيخ معلى؟"

ودنا منه:

" لقد تعرفتُ على هوية الحمار"

وأقبل عليه ضابط الصف:

" حدّد أسماء المشتبه فيهم وأضف إليهم عبد الصابر، لا تتسرع"

" عبد الصابر؟! إنه زميل بوغريبة ولا حيلة لي في مجابهة نائب النقيب المتعاطف معهما؟"

" منذ إلقاء القبض على بوغريبة متلبسا، اهتزت ثقة الضابط في عبد الصابر وأريدك أن تُحظى بشرف تسديد الضربة القاضية إليه"

وأضاف:

" ولكن من هو صاحب الحمار المغامر؟"

وتراجع إلى الخلف:

" تلك حكاية قد تطول"

" إلى أي الطوابير ينتمي؟

وانتزع الشيخ معلى تنهيدة من أعماق صدره وهو يقول:

" وهل يجرؤ على ذلك غير طابورنا المعتوه؟"

وانتفض ضابط الصف:

"من؟ عطاء الله؟ مبارك؟ من؟"

" ألم تنصحني بعدم التسرع؟"

وأوقفت سيارة الضابط خلوتهما، كان بمعية النقيب الذي بدت كلماته مشحونة بما يشبه الغضب، وفور دخولهما سمح ذو الطاقم الذهبي لنفسه بمحادثة ضابط شؤون الأهالي على انفراد.

العجوز منصورة ما فتئت جاثمة خارج الديوان إلى جانب الحمار، تطوقها مجموعة الحركى في عياء ظاهر.

وبدلا من قاعة الشيوخ التي كان قد عاد اليها الشيخ معلى بعد حين، قرر الضابط والنقيب مقابلة قادة الطوابير فرادى، نزولا عند رغبة ذي الطاقم الذهبي الذي فهم الشيخ معلى من إشارته، أن الأمر ممهد له لدى الضابط.

ودُعي العامري إلى المثول بين يدي الضابطين، فدافع عن العجوز المتحفظ عليها، كما أبعد التهمة بقية من دخل إلى أن جاء دور الشيخ معلى الذي قال:

" إن الحمار المحتجز هو حماري يا سيدي"

وبدا الضابط وكأن المفاجأة أسكتته إلى أن قال النقيب:

" ولمن تزفّ هذه البشرى؟!"

" لقد سُرق ليلا وتم تسخيره فيما تريان يا سيدي، إنها مؤامرة حيكت ضدي"

وتشرّب الصمت بقايا الكلمات، ووجه ضابط شؤون الأهالي كلامه إلى ذي الطاقم الذهبي:

" أخلوا سبيل العجوز"

ثم خاطب الشيخ معلى المنتصب في إحراج:

" ومن الذي سرق الحمار وسخّره في ما نرى"

وأربكه السؤال:

" آه، آه، قد يكون عطاء الله والرومي؛ وربما عبد الصابر"

واندفع النقيب إلى القول:

" وما دليلك؟"

" عطاء الله شريك المكي، والرومي افتقدته حين زرت خندق الرعاة، حيث أوهمني زميله أنه بخيمة الشيخ المكي، واعتقد أنه من كان يصطحب الحمار"

وسأله الضابط هذه المرة:

" وعبد الصابر؟!"

" لا أحد يمكنه شحن الحمار ليلا غيره بحكم حظر التجول المضروب"

ولمعت عينا ذي الطاقم الذهبي دون أن يلحظهما أحد، قبل أن يسأله الضابط هو الأخر:

" من يمكننا تكليفه بأمر الطابور إلى غاية انجلاء الحقيقة؟"

"هناك الشيخ مبارك"

واعترض معلى بقوله:

" هو زميل عطاء الله"

وقهقه النقيب:

" وأنت من هم زملاؤك؟!".

انتهت الرواية.

هوامش:

(1) الـــــدوار: في مناطق الشمال تطلق هذه الكلمة عادة على مجموعة من الدور(المدر) (الدشرة)، بينما في عالم الريف والبادية تطلق على مجموعة هامة من الخيم (بيوت الشعر) تكون عادة من عشيرة واحدة، وبهذا المعنى الأخير جاء ت الكلمة في الرواية.
(2) كان يتم اختيار القايد بناء على ما يتمتع به من جاه ومكانة، وكان هناك صنفان من القياد: قياد المهام وقياد القبائل. فقياد المهام هم قياد تحصيل الضرائب، وما يشبه ذلك من مهام بسيطة ويبدو أن قايد المهام هو الذي كان يُعرف في الأوساط الشعبية (الريفية بالأخص) بالكوراط، أو شيخ العرب، الذي يمثل سكان الدواوير ويسهر على ادارة شؤونهم، وهو النائب الشخصي للقائد، بينما يتمتع قياد القبائل بسلطات واسعة نسبيا، تشمل مختلف جوانب الشأن العام في القبيلة، التي توسعت مع المستجدات التي كانت تقتضي تطوير(القوانين) خدمة لأغراض الاحتلال.

(3) الباشاغا: الباشا و الاغا ألقاب فخرية في الدولة التركية.(وقد احتفظ بها الاحتلال الفرنسي في الجزائر إلى عهد متأخر، لاسيما في المناطق العسكرية كالمنطقة التي تتحدث عنها الرواية.(للتوسع لاحظ كتابنا" الإفريقي صانع ملحمة فزوز ورجال وجبال / ط 2016".

(4) المستاتور: هي تحوير لكلمة l'administrateur وهو المتصرف المحلي أو المدني ، والمعروف شعبيا أنذاك أن المستاتور هو كل شيء،أي الشخص الذي ينتهي إليه القرار المحلي، بينما في النصوص هو متصرف بلدي يرأس اللجنة البلدية (في البلديات المختلطة) .
(5) الملفوف: الملفوف هنا ليس نبات الكرنب كما هو معروف، بل المعني (عامي) وهو قطع من كبد الضان تُـلـف بشفاف الشحم وتُشوى منظمة على سفافيد دقيقة عُربت بكلمة "سيخ" وهي: BROCHETTE

(6) الـرابلة (لعل أصلها الربلة وهي اللحمة في باطن الفخذ)، والرابلة كاسم أنثوي تغنى بها شعراء الأغنية البدوية (في الجزائر) شأنها شأن " الواشمة"، وغيرهما من الأوصاف التي اطلقوها على الغواني ، والرابلة هي المرأة الممتلئة الجسد بحيث قيل إنها تلك التي لا يُرى عصب عرقوبيها، وقال أبوالعباس ثعلب:" الربلات أصول الأفخاذ" ،

وهو معنى كان معروفا حيث جاء في " المفضليات" قول المرار بن منقذ، الذي كان قد عاصر جريرا وتهاجيا:

" دفعت ربلتُها ربلتَها وتهادت مثل ميل المنقعر"

(7) المقطع الثالث أضيف إلى هذه الطبعة، بحيث لم تتوفر عليه الطبعة الأولى سهوا.

(8) (الوعدة) لعلها من " وعد " أي من تواعد الناس تلقائيا باللقاء فيها، اما اصطلاحا فهي عيد سنوي تحييه القبائل تبركا بأشهر أجدادها، (أقرب جد مشترك لها في النسب) كانت هذه المناسبات في الماضي مجرد ولائم للإطعام وعقد حلقات الدعاء و الزيارة (الجود بأموال وهبات تعطى إلى القائمين على أضرحة الأولياء)، لكن الوعدة أصبحت بمثابة مهرجانات فنية (فلكلور. فروسية) ومعارض تجارية.ومتع سياحية الخ

(9) الصاص" S.A.S " المصالح الإدارية الاختصاصية، عُرف رئيسها أيضا بضابط الشؤون الاهلية (عُد إلى كتابنا الذي ذكرناه في الهامش"3" أعلاه، حيث أعطينا بسطة موسعة عن تاريخ هذه المؤسسات القمعية). ومن كثرة الاستعمال أصبحت كلمة " الصاص " تعني في نظر العامة، الشخص أكثر مما تعني هذا المرفق.

(10) لعل السند الوحيد لقصة "خيرة البوذنيبية "هذه، هو ما تتضمنه قصيدة شهيرة مطلعها:

راها في" بوذنيب " طول البستانة و"خيرة" فالغرب دونها كادوا الأوطان

والقصيدة تصور المراحل الجغرافية التي كانت تقطعها قوافل الجنوب، إلى أن يستقل الشاعر ورفاقه القطار نحو الشمال، يقول:

يوم السبت انعولو فالماشينا "" واركبنا في ابلاص قرابت لوطان

والشاعر هو عبد الله الذي يصرح باسمه في أخر القصيدة بقوله:

عبد الله يا ملاح طلعت لو قَانة ""واتفكر خاطري الجلسة و الغيوان

(الجلسة بجيم مصرية) ويقال عن قبيلته إنه من " **أولاد العقبي**" بتفخيم القاف، و"بوذنيب" بلدة بجنوب المغرب الأقصى.

(11) ولا نحفظ من هذه القصيدة ــ التي لم نتمكن من تحديد قائلها ــ إلا بيتين يأتيان بعد البيت الذي ذكرناه وهما:

ما يديروا خيمــة او ما يسكنـــــو دار

ما ايضاوو شمعة او ما ايشعلو نـــــار

(12) الشيخ حمادة: من نجوم الأغنية البدوية في الغرب الجزائري.

(13) كان الأدق تاريخيا أن نقول " القسم" لأنه الأسبق، وليس "الناحية".

(14) " القصّاب" هنا ليس الجزّار (بائع اللحم)، بل عازف الناي البدوي أي القصبة. الزامر.

(15) الفلاّقة: مصطلح روّج له المحتلون الفرنسيون وأعوانهم، كنعت من النعوت المشينة الكثيرة التي الصقوها بالمجاهدين الجزائريين إبان الثورة، كقُطاع الطرق، الخارجين عن القانون، العصابات، الخ، يريدون بذلك تخويف الشعب منهم ، فهم ـ حسب مصطلح الفلاقة ـ يفلقون الرؤوس البشرية بلا رحمة.

(16) اللفيف الأجنبي: قوات عسكرية تابعة للجيش الفرنسي، تتكون أساسا من جنود مرتزقة أجانب ولكن تحت امرة ضباط فرنسيين، (انظر كتابنا " الافريقي صانع ملحمة فزوز ورجال وجبال" حيث أشرنا إلى ان نشأة اللفيف الأجنبي، انما جاءت نتيجة تأثر الفرنسيين بما كان يُعرف بالقوات الإضافية في الجيش الروماني المحتل قبل الميلاد).

(17) عشبة خضّار: لم نعثر في المعاجم التي بين أيدينا على صيغة " خضّار" ضمن حقل (خ ض ر) اما من حيث الحكاية فالأمر يتعلق ببطلة قصة شعبية رائعة من قصص الأحاجي، بطلتها تدعى " عشبة خضّار" ارتبط غيابها بانحباس المطر إلى أن قيل" من عشبة خضار ما صبت أمطار"، وربما جاء الاسم بجزئيه معا مركبا من هذه الدلالة، دلالة العشب والاخضرار وهما بفعل المطر دائما.

(18) البيتان من نظم الكاتب فهو صاحب ديوان في الشعر الشعبي عنوانه "أوشال الحنين"

(19) العارفـــة: أصلها (عرفات) لأنها تحدث يوم عرفات وزمن الليالي العشر (العواشير)، حيث تتجمع الفتيات وهن بألبسة أنيقة (كان معظمهن يخرجن بألبسة أمهاتهن) يتزين ويطوفن عبر الديار، مرددات بصوت جماعي:

عارفة عارفة ليلة مباركة "" أعطونا الشعير يعطيكم الخير"" أعطونا القمح يعطيكم الفرح" ..الخ" فيجمعن مقادير من الحبوب (قمح .شعير) ومواد أخرى يقمن في النهاية ببيعها وشراء الحناء ليتخضبن بها. وربما أشياء أخرى.

(20) المسبلون: يقال ـ في اللغة ـ سبّل حياته أو أملاكه، بمعنى جعلها في سبيل اللـــــه أو خصصها أو نذرها، واسم الفاعل هو مسبل بكسر الباء ، وتأسيسا على هذا نقول أن المسبلين هم شريحة واسعة من فئات الثورة الجزائرية الأخرى، وهي فئات تمثلت في المجاهدين من حملـــة السلاح، و الفدائيين وغيرهم ممن نذروا حياتهم لله وللوطن ، وكما اختص الفدائيون بالنشـــاط المسلح داخل المدن الجزائرية، كان المسبلون القلب النابض للأرياف الجزائرية، حيث تمثـــل دورهم أساسا في التمويل والتموين، والتسليح والتخزين و نقل المعلومات (الاتصال)، وضمان التواصل بين قيادات جيش التحرير العسكرية وأفراده من جهة ، والقيادات المدنية للثورة والشعب من جهة أخرى. قال شاعر المقاومة محمد بالخير:

"النفس أنهونها أمسبّل خير من المال والقيـــادة

نوقف عند العلام الأول تحضر الايمان والشهادة "

(البيتان من ديوان الراية المحظورة للشاعر محمد بالخير جمع ومراجعة الأستاذ بوعلام بالسايح)

فهرس محتوى الكتاب:

الفصل الأول/ مقدمات اللعب بالنار

الفصل الثاني / تجليات ليل المسير

الفصل الثالث / التروبادور. و"القصّاب" الألماني

الفصل الرابـع / أبواب الدهشـــــة

الفصل الخامس / صراخ في خيمة السيناتور

الفصل الســادس / رائحـــــة النطـــق.

("") هُيئتْ هذه النسخة الاليكترونية مزيدة ومنقحة في سبتمبر/ أكتوبر2018 اقتصر مزيدها على الهوامش التوضيحية، وعلى إضافات جاءت بخط مضخم لتميزها.

:

نبذة عن المسار الثقافي للمؤلف:

محمد حيدار من مواليد 1952/02/15 بعسلة ولاية النعامة متقاعد من قطاع الثقافة، مقيم بمدينة سعيدة (الجزائر).

صدرت له حتى الآن مجموعتان قصصيتان هما:" خلف الأشعة"(1984) عن المؤسسة الوطنية للكتاب، و" هندسة الاغواء"(2013) عن المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وأربع روايات هي " الأنفاس الاخيرة"(1985) عن المؤسسة الوطنية للكتاب، " الرحيل إلى أروى" (2005) عن المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، "دموع النغم" (2007) عن مطابع الجيش في نطاق الجزائر عاصمة الثقافة العربية، "ما وراء الخط الأخر"(2017) صدرت عن دار المثقف.

سبق له أن شارك في تآليف جماعية لعدة مؤلفات أصدرتها مديرية الثقافة بولاية سعيدة من أبرزها" سعيدة معالم وأعلام" و" سعيدة معالم وفنون" وقام بمراجعة دواوين شعرية قبل طبعها، معظمها في الشعر الشعبي. وكذا مؤلفات في تاريخ الثورة. إلخ

وقبلها نشر سلسلة من الدراسات السياسية ـ الثقافية بالصحافة الوطنية خصوصا جريدة الجمهورية الجهوية إلى غاية 1990 كان أهمها حلقات " المخضرم "، كما تلقى النادي الأدبي لتلك الجريدة إبداعاته باستمرار أيام كان يشرف عليه الراحل أبو القاسم بن عبد الله.

نالت قصته " العبور خارج دائرة الزمن" الجائزة الأولى في مسابقة عيد الثورة التي نظمتها جريدة الجمهورية (1984)، كما فازت قصته "شعائر الدخول إلى أديرة الألوان" بالجائزة الوطنية الأولى في مسابقة أدب الثورة التي نظمتها وزارة الثقافة والاتصال عام 2001 في القصة القصيرة. صدر له في عام 2016 عن دار الشهاب، كتاب تاريخي بعنوان " الإفريقي صانع ملحمة فزوز ورجال وجبال"، وللكاتب روايات ودواوين شعرية، وإسهامات أدبية وتاريخية أخرى بعضها تحت الطبع.